THEODOR
KALLIFATIDES

ثيودور
كاليفاتيدس

حَياةٌ أُخْرى

مكتبة
٦٩٦

Fenix
فينيكس

ثيودور كاليفاتيدس

مكتبة 696
سُر مَن قرأ

حَياةٌ أُخْرى

مُذَكِّراتُ أَديبٍ مُهاجِرٍ
عن الشَّيْخوخَة وَالكِتابَة والذّاكِرَة وَالهِجْرَة وَاللُّغَة وَالحُبِّ...
وَأَشْياءَ أُخْرى...

ترجمة: فلورا مجدلاوي

مع مقدمة بقلم الشاعر والأديب أيمن العتوم

يدرك ثيودور كاليفاتيدس أن قواه تضعف، ويقرر أن الوقت قد حان للتوَّقف عن الكتابة. فيتخلص من مكان عمله، الذي كان يذهب إليه كل صباح لسنوات طويلة، ويشعر بالضياع. هل يستطيع حقًا أن يتوَّقف عن الكتابة؟ إنَّه غير متأكد. لكن، بالمقابل، هل يمكنه أن يستمر في الكتابة؟ إنّه أمر صعب جدًّا.

سرديّة ذاتيّة شفيفة، ساحرة، مُحزِنة. تُسجِّل رحلة الكاتب في سعيه كي يجد طريقه إلى الكتابة مرّة أخرى. نص لطيف ومؤثر، يقدمه الكاتب إلينا بقبس من فلسفة ولذعة تهكم، نسافر معه إلى أماكن عدة بين السويد واليونان، ويشاركنا تجاربه وانطباعاته وأفكاره ومشاعره عبر مواقف متعددة ومشاهد متقاطعة بين الحاضر والماضي.

Fenix
فينيكس

مكتبة 696
سُر مَن قرأ

Isbn 978-91-7525-343-5
© Theodor Kallifatides 2017
Översättning: Flora Majdalawi
Förord av: Ayman Al-Otoom
Granskad av: Dr. Zahra Ghadban
Omslag: Henning Trollbäck
Författarfoto: Florence Montmare
Sättning: Tala Hashem
Kartor: Shutterstock
ScandBook AB, Litauen, 2020
fenixforlag.se

كل الشكر إلى مجلس الثقافة والفنون السويدي لتغطيته تكاليف ترجمة هذا العمل.

The cost of this translation was defrayed by a subsidy from the Swedish Arts Council, gratefully acknowledged.

مكتبة ٢٠٢١٠٢٥
t.me/t_pdf

إلى كارل أوتو بونيير

لا أثمن من صديق.
أرسطو

اللغة وطن لأنها تحمينا ونحميها.

أقدمت على ترجمة هذا الكتاب متهيّبة بعض الشيء، لأمرين، الأول؛ أنني لم أترجم كتابًا للكبار من قبل، فأنا أكتب للأطفال والناشئة وأترجم لهم، وهذا أول عمل لي للكبار. والثاني، أنني ما زلت حديثة العهد باللغة السويدية، وما زالت مهاراتي بها تحتاج إلى الصقل والمراس. لكنني بعد أن قرأت الكتاب، تشجعت أن أخوض هذه التجربة، فقد شدّني الكاتب من أولى كلماته، ذلك أننا التقينا في فضائين اثنين: الغربة والكتابة. كما استسغت أسلوبه اللطيف ولغته المباشرة البعيدة عن التكلف، وشعرت بصدق كلماته وإخلاص عاطفته. وللحقيقة أعترف أنني لم أقرأ من قبل كتابًا يستهدف موضوع الشيخوخة بشكل خاص، ربما لظنّي الخاطىء أنها مرحلة بعيدة عني. لكنني الآن، أعيشها بحزن جميل وأنا أرى والدي ووالدتي أطال الله في عمرهما يكبران أمامي. وأنظر إلى الوراء، إلى حياتي السابقة، فأرى كم مضى العمر سريعًا، وكم كبر الأولاد سريعًا. فأدرك وأقر، إن هي إلا كلمح البصر.

أما الأمر الثاني؛ فقد أعجبتني فكرة تقديم الكاتب ثيودور كاليفاتيدس إلى القارىء العربي، بما يمثله من فكر راقٍ وأدب جميل. وثيودور كاليفاتيدس الذي وُلد في قرية مُولاي في اليونان لعائلةٍ فقيرة، ثم هاجر في شبابه إلى السويد عام 1964 «بحثا عن الكرامة»، غدا من أكبر كتّاب البلاد وأرفعهم مكانة وأكثرهم احتراما، وهو يكتب منذ أكثر من خمسين عامًا باللغة السويدية، التي امتلك

ناصيتها وأبدع بها.

وقد أخذني هذا النص، لغةً، إلى لجة بحر لم أصل إليه من قبل. فأنا لم أخطط ولم أنوِ أن أتعلم لغة جديدة بعد أن تجاوزت الخمسين من عمري. فما زلت أصقل اللغات التي أعرفها لا سيّما العربية. لكن السويدية، أغوتني لما تختزنه من كنوز معاصرة ومتجددة في أدب الأطفال، لا يمكن لشخص مثلي أن يقاومها. واستدرجتني بالحاجة والضرورة، لتسيير شؤون حياتي اليومية، ومتابعة مستجدات العالم في هذا البلد الديناميكي، السويد، الذي يقدس العمل والإنتاج والابتكار والتطوير.

فاجْتهدْتُ أن تخرج الترجمة سلسة إلى القارىء العربي، وحرصت على اختيار الألفاظ المألوفة، والأسلوب السهل السلس ليوازي ذلك الذي استخدمه المؤلف في النص الأصلي، وترجمت الكثير من التشابيه التي أوردها الكاتب بحرفيتها حيثما أمكن، كي أوصل مشاعر المؤلف والصور التي تجول في وجدانه كما عبّر عنها بكلماته هو. كما عمدت أن أضيف تعريفا بسيطا قصيرا يوضح مكنونات الأسماء الأجنبية، إن كانت أسماء أماكن أو أشخاص أو أطعمة أو غير ذلك، بغية تقريب المدلولات وإيضاحها إلى القارىء العربي. واجتهدت ألا يضيع أي معنى، وألا أضيف أي معنى. وتواصلت مع الكاتب بشكل مباشر لاقتراح بعض الإضافات غير النصية للنسخة العربية لتقرّب النص للقارئء، كإضافة خارطة لجزيرة غوتلاند السويدية، وخارطة أخرى لليونان، تُظهران الأماكن التي يصطحبنا إليها الكاتب في هذا العمل، وبعض التعاريف البسيطة. كما استأذنت من المؤلف أن نتجاوز عن فقرة يشرح فيها تصريف أحد الأفعال باللغة السويدية، فوافق على جميع اقتراحاتي.

في هذا العمل لا يوجد مغامرات ولا مفاجآت؛ وإنما خط واقعي من الأحداث واللاأحداث، تشبه وتيرته حياة كثيرين منّا. وهو

أيضا رحلة بحث وتأمل سعيا لمعرفة الذات، وشوقا لمواصلة ما يتوق إليه أي كاتب، وهو الاستمرار في الكتابة.

يقول سقراط: «اعرف نفسك بنفسك»، خلال هذه الرحلة، يُعرفنا ثيودور كاليفاتيدس بأدباء وصحفيين وفنانين وسياسيين وأصدقاء وعابري سبيل أضافوا إلى فكرِه وفهمه للحياة، إما بمناقشات طويلة أو بأحاديث عابرة. كما يعرّج بنا إلى أماكن شتى بين السويد واليونان، تارة نستشعر الجمال والروعة فيها فنمنّي أنفسنا بزيارتها، وتارة نحزن إلى ما آلت إليه أحوال الإنسان فيها؛ فنصول ونجول معه في ستوكهولم حيث مكان إقامته، وجزيرة غوتلاند حيث منزله الصيفي، وأثينا والريف اليوناني محط ذكرياته وفضاء شبابه، وقرية مولاي مسقط رأسه؛ مواقف متنوعة، ومشاهد متقاطعة بين الحاضر والماضي، يقدمها إلينا بقبس من فلسفة ولذعة تهكم، عاكسًا شعوره بالمسؤولية ككاتب ومفكر في قضايا المجتمع ومشكلاته وتحولاته، فيعرضها تاركا لنا أن نختار، أن تعبر بنا جزافًا أو نتحسسها ببصيرتنا ونقلّبها في وجداننا، فنشكل رأيا أو نراجع آخر، وفي كل ذلك محاولة لفهم عالمنا وأنفسنا.

كيف ننظر إلى حياتنا السابقة، أبعين الحنين، أم بعين المتفكر الناقد؟ وقد نتطلع إلى المستقبل، لكننا، بقصد أو دون قصد، نسعى دومًا إلى معنى جديد، وفهم جديد، ورؤية جديدة، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ومهما بلغنا من العمر عتيًا. وهل للحياة أية نكهة إن لم تقدم لنا الجديد على الدوام؟

فلورا مجدلاوي

ستوكهولم، 22 حزيران 2020

مكتبة
t.me/t_pdf

مقدمة
بقلم الأديب والشاعر أيمن العتوم

سرديّة شفيفة، ساحرة، مُحزِنة، وقادرة على أنْ تُدخلك في تفاصيلها، بسيطة مع عمق، وسهلةٌ على امتِناع، وكانت العرب تقول: «خيرُ الكلام ما أطمَعَك، فإذا ذهبْتَ تكتبُ مثلَه أعياك». وهذا ما تقوله هذه السّرديّة. إنّها تبدو قريبةٌ لكنّها شاهقة، وعلى مسافة خُطوات لكنّها بعيدة. ولا يكون ذلك إلاّ لصاحب قلمٍ خبير.

الرّكن الّذي قام عليه هذا النّصّ هو حُبسة الكتابة، وهذه الحُبسة الّتي قد تصيب الكاتب في أيّ مرحلةٍ من عمره، قد تكون أشدّ وأقسى في مراحل حياته المتأخّرة، المراحل الّتي تبدأ فيها دورة الحياة تُعيده إلى طفولته عبر ذكريات يظنّ أنّه نسيها ولكنّه يكتشف أنّها تُلحّ عليه في كلّ لحظةٍ في هذا العُمر المُتأخّر.

حُبسة الكتابة أو حُبسة الكاتب، مُصطَلحٌ ربّما يُظنّ أنّه حديثٌ، فلا أحدَ يعتقدُ أنّ هذه الحُبسة أصابتْ -على سبيل المِثال- الجاحظ توفّي (868م) الّذي كتبَ أكثر من ثلاثمئة كِتابٍ، ومات تحت كتبه الّتي رُدِمتْ فوقَه وقد تجاوز عمره مئةَ عامٍ، ولا أصابتْ التّوحيديّ توفّي (1023م) إذ كان عنده -على ما يبدو- فيضٌ من الكتابة وتدفّقٌ غير مشروطٍ، حتّى إنّه فَكّر أكثر من مرّة لسقوطه في آبار الاكتِئاب أنْ يحرق كُتُبَه، ولربّما نجح في إحدى هذه المحاولات.

ربّما يشكّ المرء أنّ هذه الحُبسة قد أصابتْ بعضَ هؤلاء الكُتّاب فتمنّوا أنْ تنتهي حياتهم وهم في هذا المجد قبل أنْ يُداهمهم الجدب والمَحْل في الكِتابة، وفي هذا قُتِلَ المتنبّي عام

(965م) ولَمّا يتجاوز الخمسين من عمره وهو في أوج شُهرته، وانتحر ستيفان زفايفج عام (1942م) وهو في قِمّة عَطائه. وكذلك انتحر آرنست همنجواي عام (1961م) بعد أنْ وصل إلى القمّة في المجد والشّهرة، هل كان انِتحارهم بسبب شعورهم بهذه الحُبسة؟ أو خوفًا من أنْ تستمرّ إلى زمنٍ يتحوّلون فيه إلى آلاتٍ صَدِئة كما يصفُ بعضُهم؟ ربّما.

توني موريسون الحاصلة على جائزة نوبل للآداب عام 1993م تتبرّأ من هذا المُصطَلح، ولكنّها حينَ تشرحُ تبرُّؤها منه تقع فيه، تقول: «أنا أتبرأ من هذا المصطلح، تمر عليك أوقات لا تعرف ماذا تفعل فيها، وقد تتعثر في الوصول إلى كلمات أو حدث، لذا إذا كنت حسّاسًا، فلن تستطيع الكتابة. لقد كتبتُ رواية (المحبوبة) بعدما قضيت ثلاث سنوات من التفكير فيها. وبدأت في كتابة المخطوطة بعدما تعرفت على الشخصيات وبعد التغلب على الخوف من خوض المُعترَك الكتابيّ، ثم استغرقت كتابتها ثلاث سنوات أخرى. وفي تلك السنوات الثلاث الأخرى كنت أعمل دون أن أدوّن كلمة واحدة!»

كاتبنا الجليل ثيودور كاليفاتيدس ربّما من النّوع الّذي أصابتْه هذه الحُبسة وهو في نهاية العَقد الثّامن من عمره، وحينَ أرادَ أنْ يقول لنا ذلك، قالَه بهذه السّرديّة الّتي تتدفّق حيويّة، وتفيضُ جَمالاً، وهذا من المفارَقات.

ولكنْ -مهلاً- ما الدّوافع الّتي قد تُؤدّي إلى حُبسة الكاتب؟ كاتِبنُا يجيبُ عنها حينَ يقول: «كان خوفي الأكبر دائمًا هو أنني قد أجعل نفسي محطّ سخرية. فأكتب شيئا فظيعًا، يُضحِكُ عليَّ حتى طيور النورس المحلّقة فوق مياه خليج ستروممّن في ستوكهولم». هذا الشّعور بأنّ البِئر قد فرغتْ من الماء، هو شُعُورٌ ربّما يُلازم الكاتب كلّما هَمّ بكتابة نَصٍّ جديدٍ، إنّه يشعر أنّ النّاسَ لو أرادتْ أنْ تملأ من بِئره ماءً فلن تجد سِوى الطّين.

الحُبسة قد تصيبُ أيّ كاتبٍ، لكنّ السّؤال: هل يستسلم لها؟ ما الّذي يجعله يستسلمُ يا تُرى، وهو يعرفُ أنّ الكتابة قد تساوي حياةَ الكاتب، إنّ الكاتب خارجَ كلماته ميّت. سيبقَى سؤال الجدوى قائِمًا حتّى لو حاول الكاتب أنْ يقول لنفسه: لقد اكتفيتُ، آنَ لي أنْ أرتاحَ قليلاً، وآنَ لهذا الفارسِ أنْ يترجّل! كَلاّ، ليسَ هذا ما يحدثُ في العادة للكُتّاب، إنّ الاستِسلام إمّا أنْ يكونَ موتًا قَدَريًّا يبعثُه الله من خلال مرضٍ أو حادثٍ ما، أو موتًا بيدٍ أخرى، أو انتِحارًا، أمّا خارج هذه الأشكال فسيكون من العبث أنْ تستسلم أو تُقنِعَ نفسكَ بأنّكَ تفعل، سيظلّ ذلك الهاجس يدور في عقلك مثل نحلةٍ لا تهدَأ: تستطيع أنْ تكتب، وليسَ هناك ما يحدّ حقّكَ في ذلك، أنتَ مَنْ تضع هذه العقابيل، عليكَ أنْ تتحرّر منها، ولِذا من المُجدي أنْ يبدأ الكاتب بالبحث عن الإجابة عن هذا السّؤال: «لماذا تحظى الكتابة بكل هذا الوزن في حياتي؟». وسيجد الجوابَ بسيطًا: لأنّها تساوي حياتي، والتوقّف عنها يساوي التّوقّف عن الحياة.

الكِتاب على قِصَره عظيم، ولُغته إشاريّة مُكثّفة، وضع الكاتب يده فيها على كثيرٍ من المسائل، وأدارَها بفنّ على سِنّ القلم فجاءتْ مُدهِشة، أنا أعدّ هذا الكتابَ كتابَ القضايا والمواقف، والفلسفات، والتّحوّلات، والوصف، والنّسيان... وسأشرح هذا بشيءٍ من التبسيط والاقتِضاب.

أمّا كتاب القَضايا، فقد تعرّض لقضيّة اللاّجئين، متذكّرًا أنّه كان أحدهم قبل أكثر من خمسة عقود: إنّه ينعَى على هذا العالَم الرّأسماليّ الّذي يهتمّ بالمادّة ويهمِل الإنسان، فليسَ مُهمًّا أنْ يتعافَى الإنسان، بل المهمّ أنْ يظلّ رأسُ المال بخير: «لو أظهرت أوروبا المزيد من حسن النية، فقد تتدبّر أمور جميع اللاجئين إليها. لكن أوروبا كانت تريد أموالها».

والقضيّة الثّانية من جملة القضايا الّتي عَرَضَ لها الكاتب هي

قضيّة الفقر، ونعَى على المجتمع الأوروبّي قلّة إحساسِه بالفُقراء، وهذه الطّبقيّة الّتي لا تُراعي مشاعرهم. والكاتب يُذكّر نفسَه بأنّه كان فقيرًا، ويسترجع ماضيه من أجل أنْ يُحسّ بمعاناتهم، وليكتبَ عنهم، فهو وإنْ صار اليومَ مشهورًا تقرأ أوروبّا له، وتُسمّى مدرسةٌ باسمه وشارعٌ كذلك، إلاّ أنّه مع هذا المجد الّذي وصل إليه لن ينسى جدّته الّتي: «كانت تمضغ الجذور الصلبة بلثّتها، حتى أتمكن أنا من أكلها عندما كان عمري ثلاث سنوات، ولم يكن هناك شيء آخر نقتاته.»

والقضيّة الثّالثة الّتي أشار إليها الكاتب هي قضيّة الدّيمقراطيّة وتعالقها مع حرّيّة الرّأي، مُصادرة مُعتقدات الآخَرين باسم الحرّيّة جريمة؛ إذْ لا حرّيّة في شتيمة، والدّفاع عن حرّيّة الرّأي مُقدّسة مع الاختِلاف مع صاحبها. والحُجّة تُقرَع بالحُجّة، ويُمكنكَ أنْ تملك السّلطة لكنّك لن تُقنعني، تعالَ لنتحاور، قد نختلف، ليسَ في ذلك ضير، نحنُ قد نختلفُ مع أنفسِنا أحيانًا، لكنّ اختِلافي معك لا يعني بالضّرورة خِلافي معك.

أمّا كتاب الفلسفات، فهناك فلسفة الموت والحياة، وفلسفة الزّمن، وفلسفة الكتابة، وفلسفة الهجرة، تجد ذلك مبثوثًا في صفحات النّصّ، يأتي عفو الخاطر، لأنّ الكاتب يغرفُ من بحر تراكماته المعرفيّة الّتي تشكّلتْ لديه طَوال هذه السّنوات، تظهر لديه فلسفة الحياة والموت في أكثر من موضع، وإذا كان لا بُدّ من الموت، فلتستمرّ حياتنا في أعمالنا وفيما نكتب.

والإنسان كلّما تقدّمتْ به الحياة سَكَنه هاجس الموت هذا، ربّما يكتشف في نهاية الطّريق كم كانت خياراته خاطِئة، أو كان يُمكن أنْ ينتقي أفضل منها، ولربّما تُصيبه لعنةُ أنّه سارَ منذ البداية في الطّرق الخاطئة ولم يكتشف هذا إلاّ في النّهايات، غير أنّ الكاتب حتّى لو أيقنَ بذلك، فإنّه سيتغلّب على ندمه وربّما حسرته، بتبسيط

الأشياء، واعتبار الموت أمرًا عاديًّا، وأنّ الحياة لن تتوقّف عليه إذا زاره هذه اللّيلة أو تلك: «ماذا يهُم إذا متّ الليلة؟ فقد رأيت هذه الأضواء، وهذه الأشجار، لسنوات عديدة».

وأمّا فلسفة الزّمن، فإنّه يرى مع ابنه وهُما في منزله الصّيفيّ بالسّويد شجرةَ كُمّثرى قديمة، يستبدل بها ابنُه واحدةً جديدة، فإنّ المرء حتّى ولو بلغ الشّيخوخة، يستطيع أنْ يتجدّد في شجرةٍ جديدةٍ ناضرةٍ قادرةٍ على العَطاء، ذات ثمرٍ حلو.

ولعلّ نظرته الفلسفيّة إلى فِعل الزّمن بالأحياء، وبالموتى الّذين كانوا أحياء من أعمق ما قرأت، إنّها تجعل المرء يقفُ أمامها مُندهِشًا من بساطة اللّفظ وكثافة المعنى: «سيكون هناك أيام ستناديني فيها كي تخبرني بأن العشاء جاهز، على الرغم من أنه لن يكون بإمكاني أن آكل.»

الزّمن يُوقفُ هذا العمر الّذي سينتهي يومًا ما، يستطيع أنْ يحوّل كلّ شيءٍ إلى رماد، لكنّه غير قادرٍ أنْ يوقف الهجرة الّتي تستمرّ في كلّ الأحوال، وتُشعره بالاغتِراب في كلّ لحظة: «الهجرة، التي بدأت قبل سبعين عامًا عندما غادرْتُ قريتي للانتقال إلى أثينا، واستمرّت حتى وصلت السويد، لا تزال مستمرّة».

وأمّا كتاب التّحوّلات، فإنّ هذه التّحوّلات أخذتْ أشكالاً متعدّدة، وارتسمتْ على هيئاتٍ متنوّعة، فهناك الإشارة إلى التّحوّل الاجتِماعي العامّ: «كانت لديّ مشكلة. ليس فقط مع نفسي، ولكن أيضًا مع المجتمع. كنتُ أتعذّب لرؤية السويد تتغيَّر، خطوة خطوة».

وكان هناك التّحوّل في التّعليم الطّبقيّ الّذي أدّى إلى فساد التّعليم بوجهٍ عامّ: «لقد دمرَّت لامركزية نظام التّعليم مدارسنا الابتدائية... والنتيجة: أطفال الأسر الأقل ثراءً يرتادون مدارس أسوأ وأسوأ».

وأمّا كتاب الوصف، فالنّصّ يعجّ بالوصف المُقتضب الخاطف

اللّذيذ، وخبرة الكاتب الطّويلة في الكِتابة، ودُربته الأطول تُنتج أوصافًا وتشابيه كهذه، مُكثّفة، مشهديّة، تُدخِلك في روعتها بمجرّد أنْ تقرأ سطرًا أو اثنَين منها.

كيفَ يُمكن أنْ تصفَ الوقتَ بأجمل من هذا: «وكان وزن الوقت أثقلَ من الماء»؟ وهل يُمكن أنْ تصفَ التّشرّد بأقسى من هذا: «كل شيء كان مغموسًا بالفقر، بالبؤس التّام، بالمشردين، بكل من ليس لديه سقف فوق رأسه؟»

والمواضع السّاحرة في الوصف والتّشبيه بأقلّ العبارات أكثر من أنْ تُحصَى في هذا الكتاب، ولكنْ حسبُكَ من السِّوار ما أحاطَ بالمِعصم كما يقولون.

وهو إلى كلّ ذلك كتاب التّذكّر والنّسيان، يتذكّر الموتى والرّاحلين أكثر من الأحياء، ويشرع في دروب النّسيان من أجل أنْ يُجدّد طاقته، وعمره، وشبابه، ويكون قادرًا بهمّة أنْ يقطعَ ما تبقّى له من دروبٍ في هذه الحَياة.

وبعدُ، لقد كان هذا في ظنّي هاجسَ الكاتب الأكبر؛ هل ستموتُ حروفه؟ إنّ موتَه الجسديّ لن يعني له شيئًا كثيرًا إذا ظلّتْ حروفُه حَيّة، لقد ناضلَ كلّ هذه السّنوات عبر صُحبةٍ طويلةٍ مع الحرف من أجل أنْ يعيشَ في أزمنةٍ لاحقةٍ متعدّدة، وألا يزداد الموتى موتًا على حَدّ تعبيره.

أيمن العتوم
عَمّان، 1 تمّوز 2020

الجزء الأول

كان وقتًا صعبًا. التهمت روايتي الأخيرة كل قواي. كنت منهكًا، وفكّرت أن أتخلى تمامًا عن الكتابة: أتخلى عنها قبل أن تتخلّى هي عني.

فبعد أن أتممتُ أعوامي السبعة والسبعين، غدت الكتابة لي كمن يعمل عملًا إضافيًّا. ذات مساء، التقيت بيورن ويمان، المحرر الثقافي في صحيفة «داغنز نيهيتر» (أخبار اليوم)، في دار الأوبرا فأخذنا ندردش في الأمر. طرح بيورن الرأي القائل بأنه يجب التوقف عن الكتابة بعد سن الخامسة والسبعين.

«لا بأس حتى خمسة وسبعين، لكن بعد ذلك، هناك شيء ما يحدث لهم.»

كان يقصد بـ «لهم»، الكتّاب.

هل حدث هذا «الشيء» لي الآن؟

لقد قمت فعلا ببعض المحاولات المتهوّرة للعمل على بعض الأفكار، لكنني لم أصل إلى أية نتيجة. ففي منتصف جملة ما، كان سرعان ما يغزوني شعور بالتعب، ولا تعود الكلمات ذات مذاق سلس في فمي. فكيف يمكنني أن أمضي قدمًا؟

في إحدى تلك الأيام، وقفت أستحم في استوديو العمل

الخاص بي بكل ملابسي، تاركا نفسي أتبلّل كلّيًّا. كان هدفي هو محاولة الأخذ بنصيحة الأديب الروسي أنطون تشيخوف حول كيفية التعافي من الفشل. كان ذلك شعوري تماما؛ إذ إن عدم قدرتي على الكتابة كانت تشكل فشلًا كبيرًا، فشلًا ذريعًا بالنسبة لي. وكان أنطون المتواضع قد قال يومًا إن المرء، في تلك الحالة، يفعل ما يفعله الكلب المبلول؛ ينفض الماء عنه.

لم تنجح الفكرة. وعلى العكس تماما. انتهى بي الأمر أن أرتجف بردا، فتسلل الحزن عميقًا إلى روحي. ولم أكن كلبًا مبتلًّا فحسب، بل كنت أيضًا كاتبًا سابقًا متجمدًّا من البرد.

لقد عشت سبعًا وسبعين سنة. وكان وزن الوقت أثقل من الماء. ولم أستطع أن أزيل ذلك الثقل عن كتفيّ. فكيف إذن سأتمكن أن أكتب مجددًّا؟

قرأت مقابلة مع كارين جوهانيسون، واحدة من أفضل كتّاب المقالة في السويد. كانت حينئذ في السبعين من عمرها. لكنها قالت إنها لن تكتب بعد ذلك، إذ لم يكن لديها الرغبة ولا الجَلَد في أن يلتهمها مشروع أدبي جديد.

تستحق الفكرة بعض التفكير.

أكان لا يزال ممكنًا أن أنظّم جدول أيامي حول نص ما؟ فكتاباتي تملأ كل لحظة من لحظات نومي ويقظتي.

وبطلاتي كنَّ دائمًا قريبات مني، وكذلك أبطالي الذين كانوا يستلقون بجانبهن، وكان عليهم أن يحتملوا استهزائي بهم أو اشمئزازي منهم إن كانوا ذوي شخصيات جبانة أو قاسية.

وطالما أثارت بطلاتي فضولًا كبيرًا ورغبة لا حدود لها. كنَّ يمشين أمامي أو يتأبطّن ذراعي. يأتين نحوي متجهِّمات أو مبتسمات. يجلسن قبالتي وقد وضعن ساقًا على ساق، أو يضحكن من خلفي. كنت أعرف كل واحدة منهن جيدًّا؛ ماذا ترتدي، وماذا تقرأ، وما يعجبها في الرجال والنساء، ومتى تقع في الحب، ومتى تفتح ذراعيها للمرة الأولى.

أحيانًا، كنت أقع في حب إحداهن، فتستعر غيرتي؛ استجوابات مكثفة... مرّة تلو مرّة: ماذا قلتِ له، وماذا قال لكِ؟

أين كنتِ؟ هل تسمين ذلك رقصًا؟ كان ذلك أقرب إلى الإغواء منه إلى الرقص بالنسبة لي. بماذا تفكرين؟ اتَّصلتُ ولم تجيبي. وهكذا.

في المساء، كانت زوجتي تسألني أحيانًا: «ماذا فعلتَ اليوم؟»

«كنْتُ مع امرأة أخرى.» كانت تضحك، لكن تلك كانت الحقيقة. إذ كنْتُ مع إيلينا من رواية مع برودة شفتيها في أستراليا، أو مع تيماندرا في أثينا قبل ألفين وخمسمئة عام، أو مع شخص آخر في مكان آخر.

هكذا مرت أيامي منذ عام 1969، بعد نشر روايتي الأولى. لم أعانِ من نضوب في قريحة الكتابة، ولا من انقطاع في تدفق الأفكار. كان كل كتاب جسرا للذي يليه، تمامًا كعلاقة غرامية. لكنني الآن في عام 2015، وقد أخذت قواي تخور. تُرى هل لدي الطاقة لأستعيد شغفي والتزامي اللذيْن لازماني كل هذه السنوات؟

كان خوفي الأكبر دائمًا هو أنني قد أجعل نفسي محطّ سخرية. فأكتب شيئا فظيعًا، يُضحِكُ عليَّ حتى طيور النورس المحلّقة فوق مياه خليج ستورمّن في ستوكهولم. كنت خائفًا أن أكتب بشكل سيىء أكثر من خوفي ألا أكتب على الإطلاق. لكن كيف كان لي أن أعرف إن كان ما كتبته سيئًا؟ وهل سأخيف ناشري الرصين بكتاباتي هذه؟

بالطبع يمكن للمرء أن يعتمد دائمًا على النقّاد. أما أنا، فلم أستطع ذلك. لقد كنت جزءًا من لعبة النقد الأدبي لفترة طويلة مما يجعلني لا آخذها على محمل الجدّ. لقد كان قرار

الكتابة أو عدم الاستمرار بالكتابة هامًا للغاية بالنسبة لي، ممّا لا يمكنني أن أسمح لشخص آخر أن يتّخذه عني.

كان الأمر يتعلّق بحياتي.

أكسل ساندموز، الذي كان يكتب اسمه Aksel بدلا من Axel إذ لم يرِد صليبًا في منتصف اسمه، هو كاتب امتلك قلبي وعقلي. اعتاد أن يقول إن استطاع الكاتب أن يتوقف عن الكتابة، فعليه أن يفعل ذلك.

كان لدى ساندموز نصيحة أخرى. كان أحد أصدقائه المقرَّبين رسامًا فَقَدَ زوجته التي يحبّ، وكان دائم التحسر لأنّه لم يعد بإمكانه أن يرسم.

«في كل مرة أقف فيها أمام حامل اللوحات، أرى وجهها.»

فأجاب ساندموز: «حسنًا، ارسم وجهها».

أمّا أنا، فلم يكن لديّ وجه لأرسمه. مجرد شعور مضجر بالقلق في قلبي، وغشاوة في عقلي كما لو أنّه لُفَّ في لفافة قطن... أشبه بدوار دائم يجتاحني. قد أتمكّن أن أكتب عن سبب عدم قدرتي على الكتابة، لكن ذلك لم يكن حاجة ملحة. وسيكون من الأفضل لو أتوقف.

لكن هل يمكنني أن أتوقف؟ لم أكن متأكدًا. إن عدم القدرة على الكتابة هو شأن، وقرار التوقف عن المحاولة هو شأن مختلف تمامًا. وعندما ذكرت ذلك لعائلتي، ضحكوا وذكّروني أنني أقول الشيء ذاته بعد الانتهاء من كل كتاب. كما كانت ردة فعل اثنين من أصدقائي مشابهة. ووصفه أحدهم: «سلوك إدماني نموذجي، في كل مرة يعود الإنسان إلى رشده فيقرر أن يتوقف عن التعاطي، إلا أنه ما يلبث أن يعود مجددا

إلى الإدمان.»

أحيانا، وببساطة لا يستطيع المرء أن يكتب. حتى إنَّ أديبًا مبدعًا بموهبة السويدي الراحل يوران تنستروم هجر مخطوطة له في منتصف العمل عليها، إذ لم يستطع أن يضيف سطرًا واحدًا إليها. والكاتب السويدي الكبير فيلهيلم موبيري، فضَّل الموت على العجز الأدبي.

جورج سيمنون، الكاتب البلجيكي غزير الإنتاج، كان يكتب بسرعة فائقة. فكانت تستغرقه رواية بمائتي صفحة قرابة أسبوعين ليكتبها. كان روتينه اليومي واضحًا جدًّا. يُغلق على نفسه في غرفة، ويأتيه سكرتيره بالطعام، ولا يخرج حتى ينتهي من الكتاب الجديد.

ذات يوم اتبع النمط المعتاد. فأغلق على نفسه الباب، بينما وقف سكرتيره في الخارج ينتظر الصوت المألوف للآلة الكاتبة. مرت عدة ساعات، ولم يسمع شيئا. فجأة ظهر سيمينون، شاحبًا ومضطربًا بعد ساعات عقيمة من البحث عن الجملة الأولى. ثم قال بالفرنسية:

«Ça y est.»

وتعني، «هذا كل شيء».

لقد كتب أكثر من أربعمائة كتاب، لكنه لم يستطع إنتاج كلمة واحدة أخرى. ومنذ ذلك اليوم، لم يكتب أي شيء آخر خلال حياته.

بعبارة أخرى، لم يكن خوفي غير عقلاني. فكلما كتبت أكثر، ازداد خطر أن ينفد كل شيء. فاحتمالية حدوث أمر حتمي تزداد مع مرور الوقت، إن لم يكن هذا الأمر قد حصل

بعد.

ولم تكن تلك محاولة إغواء أو استدراج لأحد أيضًا، فأنا لم أكن أتوقع أن تجثو كل السويد على ركبتيها وتتوسل لي كي أستمر في الكتابة. ولن يستدعيني أحد إلى بابل كي أشرح موقفي. فمعظم الناس لن يلحظوا ذلك. وقلة قليلة من الناس محظوظون بما يكفي لجذب الانتباه إليهم لأنهم توقفوا عن الكتابة. لم أكن تحت سيطرة أي وهم. لكنني كنت مرعوبًا من الفراغ الذي سيحتل حياتي، فتغدو سلسلة من النهارات والليالي لا يمكن تمييزها عن بعض، تمامًا كالممرات الطويلة اللامتناهية في مجمعات الشقق المبنية في برنامج المليون شقة للإسكان.

ومع ذلك لم أستطع الكتابة. لماذا؟ لم يكن ذلك بسبب المرض، أو مشاكل شخصية، أو المناخ الاجتماعي السائد، أو أي شيء آخر. فالنبع الذي تنبع منه كتاباتي موجود بداخلي. وإذا جفَّ هذا النّبع، فإنَّ هناك خطبًا ما بداخلي أنا. ولا يمكنني أن ألوم أي شيء آخر، حتى لو كنت غير متناغم تمامًا مع المجتمع المعاصر، إذ إنني بإمكاني أن أكتب مقالًا أو كتابًا لمناقشة هذا النوع من القضايا، لكنني لم أكن أرغب في ذلك.

يتحدث البحّارة عن الرياح القادمة، وهذا تمامًا ما تشبهه الكتابة. فأنت محمول على طيّاتها، والسرد يختار مساراته الخاصة. أي شيء يمكن أن يحدث من جملة إلى أخرى. كنت أتوق لهذا الشعور. لكنّه لم يكن يأتي.

مرَّ شهران. ذهبت فيهما إلى استوديو العمل كل يوم. هناك، لم أفعل شيئًا سوى الاستماع إلى الموسيقى والتحدث

بالهاتف. وغالبًا، كنتُ ألعب الشطرنج ضد برنامج على الحاسوب، أطلقت عليه اسم كارل أوتو، وهو اسم الناشر الذي ينشر أعمالي منذ أكثر من أربعين عامًا، خصمي الدائم. في بعض الأحيان، كنت أهزم الحاسوب، وكانت سعادتي لا تعرف حدودًا. حينئذ، كنتُ أمشي وأقف أمام المرآة لأتحقق إن كان يظهر عليّ أنني بدأت أفقد عقلي.

أحببت قضاء الوقت في استوديو العمل في المنطقة الجنوبية من مدينة ستوكهولم. فكرة أن أمشي ذات الخطوات التي كانت تخطوها مادموازيل يوزابيث شوبري، رسّامة القرن التاسع عشر، كانت تملؤني بالبهجة كل صباح. هناك، تُزهر أولى أزهار الربيع البيضاء والصفراء والزرقاء، على المنحدر القابع وراء الكنيسة النرويجية. وكانت تحيط بي غبطة مماثلة حين مغادرتي مكتبي كل مساء. إذ كانت مصابيح الشوارع الجميلة تنشر ضوءا ناعمًا لطيفًا يتوهج بلون العسل على طول طريق ستيغبريزغاتان. كان يستغرقني بعض الوقت لأُخرِجَ نفسي بعيدا من ذلك المشهد الخاص.

يمكنك أن تقول إن هذا هو المكان الذي تمكنت فيه أن أتذوَّق ماضيًا لم يكن لي. كانت تلك ستوكهولم الأيام الخوالي. وكان المبنى الذي يضم مساحة العمل الخاصة بي متجر توابل قبل أن يتحوّل إلى شقق. فكنت أجلس وأكتب محاطًا بعبق قرن آخر.

لقد أحببتُ حقًّا تلك الغرفة. كنت أسأل نفسي حين أدخلها كل صباح: «صباح الخير، هل أمضيتَ ليلة هادئة؟ هل لديك شيء لي اليوم؟ «وكانت غرفة مكتبي تستقبل أسئلتي

تلك على مرِّ السنين.

إن المواضيع والأفكار ليست فقط في رؤوسنا، ولكنها أيضًا حولنا؛ هي جزء من الجدران والأثاث، في رائحة القهوة، وفي وهج المصباح. وفي يوم مثاليّ، يمكنك أن تكتب عن أي شيء على الإطلاق.

«أعطني منفضة سجائر وسأعطيكَ قصة!» هكذا كان يتفاخر تشيخوف الخجول. وهناك أيام أخرى لا يستطيع المرء أن يكتبَ فيها عن أي شيء على الإطلاق. وكثيرا ما وصلت مكتبي أشعر بالنكد والبؤس، فقط كي أعثر على الكاتب الذي يكمن في داخلي بعد عشر دقائق؛ «عبدي»، كما يصفه زميل لي. لماذا كان هذا هو الحال؟ ليس لدي فكرة. ربما كان ذلك بسبب الهالة التي تركها المستأجر الذي سبقني، والتي ما زالت تنبض بالحياة. ما التقيْت به قط، ولم يكن لدي أدنى فكرة أي نوع من الأشخاص كان، عدا عن حقيقة أنه في الأغلب قد عاش حياة وحيدة. إذ ترك وراءه سريرًا حديديًّا ضيقًا للغاية -أضيق من المعتاد- يذكرنا بغرف التعذيب أكثر من الراحة والمتعة.

كان مؤلمًا النظر إلى ذلك السرير. فقد كان يرشح منه شعور بالوِحْدة يملأ عيني بالدموع. كنت خائفًا أن ينتهي بي المطاف بنفس الطريقة، وحيدًا في سرير حديديّ ضيّق جدًّا. فأرسلت السرير إلى متجر الأثاث المستعمل «ميرورنا»، ثم ذهبت إلى متجر إيكيا واشتريت سريرًا بسيطًا ومريحًا، مقاسه ليس فرديا ولا زوجيا، إنّما بينهما. وكان اسم طراز السرير الجديد «سلطان».

رائع!

هناك أخذت قيلولتي. كان أصدقائي السويديون يتمشون بعد الغداء، باستثناء إرنست، كان يركض. لم أكن أستطيع أن أفعل ذلك. كنت أشعر بالنعاس فور تناولي الطعام. كان من المستحيل أن أبقى منتصبًا واقفًا على قدميّ. وكان عليَّ أن أستلقي على سلطاني، وذاك ما كنت أفعل. كنت أشعر بالأمان لعلمي المسبق أي منظر ينتظرني عندما سأفتح عينيّ، فتغشاني السكينة.

عبر إحدى النّوافذ، كنتُ أرى قبّة كنيسة كاتارينا، ومن خلال أخرى، كنتُ أستطيع مشاهدة مرفأ ستوكهولم، حيث ترسو السفن الكبيرة والصغيرة، حاملة معها المتقاعدين والمتحابين من كل أصقاع الأرض.

كانت غرفتي في عمارة مبنية من الخشب يعود تاريخها إلى سبعينيات القرن التاسع عشر. ولم يتم ترميمها منذ تلك الأيام، باستثناء تجديد الديكور. في إحدى المرات، اضطر فنيّ الكهرباء أن يحفر قناة للكوابل. فأخذ يحارب فيها كوحش. «اللعنة، إنها أقسى من الحجر!»

أمسكَ قطعة الخشب التي اقتطعها ورفعها إلى أنفي اليوناني الكبير.

قال: «شمَّها... ما زالت تعبق برائحة الصنوبر».

لقد شهدْتُ العديد من السنوات الرائعة في استوديو العمل، والآن سأكمل حياتي من دونه. لقد كانت الأشهر القليلة الماضية ذات طبيعة كابوسية. فعلت كل شيء كالمعتاد: وصلت في الوقت المحدد، وأعددت القهوة، وشغّلت جهاز الحاسوب، لكن ذلك كان نهاية كل شيء. جرَّبت أفكارًا مختلفة: أن أترجم

الإلياذة، أن أخطَّ مقالة عن الأخلاق النيقوماخية لأرسطو، أن أكتب قصة حب. لكنّها ماتت جميعها... كانت تعاني من نقص في الأكسجين.

كانت لديّ مشكلة. ليس فقط مع نفسي، ولكن أيضًا مع المجتمع. كنتُ أتعذَّب لرؤية السويد تتغيَّر، خطوة خطوة. فالعدالة الاجتماعية والتضامن كانا يتراجعان أمام القوى المرئية وغير المرئية للسوق. ازدادت خصخصة التعليم، وكذلك شؤون الرعاية. تحوَّل المعلمون والأطباء تجارًا، وغدا الطلاب والمرضى زبائن. كان كل شيء يحدث بسرعة كبيرة لدرجة أنه لم يكن هناك الوقت لتأريخ الأحداث. كانت فجوة الأجور تزداد عامًا بعد عام. وصار الجشع يجلس في مقعد الربّان ويقود الأمور، وغدت حرية الفرد بلا أية ضوابط أو حدود هي النجم الموَجِّه.

لم أستطع التكيُّف، وكنت أتقدم في السن في عالم شعرت أنه يزداد غرابة وغربة بالنسبة لي. في النهاية لم أجرؤ حتى أن أفتح فمي. اعتراضي كان أمرًا مسلَّمًا به. لقد كبرت وصرت نكدًا. أو كما يُقال باللّغة السويدية Gnällspik، أي (نقّاق).

يا لها من كلمة ذكيّة!

ويقولون إن اللغة السويدية لغة فقيرة.

كان بيتي الخشبي يمثل جميع القِيَم التي كانت تنزلق في المجتمع. لقد بُنِيَ بهذه القِيَم. فقد احتفظ الخشب برائحته الخشبية حتى بعد ما يقارب مائتي عام. صارت الشموع تبث

رائحة سيئة هذه الأيام. وكنْتُ اعتدت أن أضيء شمعة أو اثنتين بعد ظهيرة أيام الشتاء القاتمة. بينما قبل ثلاثين عامًا عندما شرعت في هذه العادة، كانت الشموع تنشر رائحة ناعمة لطيفة من حولها. أما الآن، فلم أعد أستطيع احتمال رائحتها اللّاذعة التي تطلقها. هل أبالغ؟ قليلًا ربما... قليلًا فقط.

كان الحيُّ بأكمله يتحوَّل بسرعة محيّرة. وتم حفر جبل ستيغبريت من أجل توفير مواقف للسيارات تحت أقدامنا. احتججنا، وكتبنا رسائل، ووقعنا عرائض، لكن تمّ تَجاهلنا، ليس فقط من قبل مقاولي البناء، ولكن أيضًا من قبل بلدية ستوكهولم وموظفيها. كانت المدينة تعاني من أسوأ أزمة سكن في العصر الحديث، بينما كانوا هم يبنون مواقف للسيارات.

كانت النتيجة غير المتوقعة للبناء تحت الأرض أن الفئران أصيبت بالجنون واندفعت إلى الشوارع تُلَوِّح لنا بأعلام حمراء. كانت تتبعني في طريقي لتناول الغداء في مطعم جيمي، يوناني آخر في الشتات. أضحت المدينة نتنة الرائحة، وصار الناس يتبوَّلون في كل مكان، وارتفعت أجور المساكن حدّ السماء... بينما كانوا هم يبنون مواقف للسيارات.

هذا ما حدث في ستوكهولم، في مدينة كان يُعتبر فيها البصق في الشارع جنحة يعاقب عليها القانون. لكن لحسن الحظ، كانت هناك تغييرات للأفضل أيضا، فعلى سبيل المثال، كان هناك باعة الزهور في الهواء الطلق. كانوا ينصبون أكشاكهم كل صباح في الساحات، أو عند تقاطع الطرقات، ويعرضون أزهارهم ونباتاتهم، في الصيف والشتاء. فتعلو الروائح الزكيّة وتغيّر جو المكان وما يحيط به.

في أسفل الاستوديو في منطقة شيرهوفسبلان، كانت هناك سميرة من تشيلي. كانت مفعمة بالحيوية والمعرفة والبهجة. تبادَلْنا كلمات كل صباح، وأحيانًا في المساء إن كانت لا تزال هناك. في بعض الأحيان، كانت تعطيني زهرة لأضعها على مكتبي. كانت قد قرأت إحدى قصصي، لكن عدا ذلك، كانت ابنتها هي من تقرأ كتبي.

في بعض الأحيان، كنت أتوقف متلكئا عندها لفترة، ولذلك سر. فأنا أحب مشاهدة النساء اللاتي يبتعن الزهور. فهناك نور يتوهج من حولهن. أما الرجال الذين يشترون الأزهار، فكل ما يتعلّق بهم محزن كئيب، وكأنهم على وشك شراء قنابل يدوية.

أنشأت سميرة عملها بنفسها، وهي الآن توظِّف ثلاثة مساعدين. مجرد رؤيتها تضعني في مزاج جيد، وتحثني للعمل. ما مدى صعوبة كتابة كتاب عندما تستطيع امرأة عزباء، لاجئة من تشيلي، أن تُنشِئَ عملًا وتديره مع ثلاثة موظفين؟

من ناحية أخرى، أقام اليوناني كشكًا في منطقة مدبوريَربلاتسن، عندما فقد وظيفته مع شركة ساب التي كانت تتدهور أحوالها بسرعة. كان تقدمه مذهلًا أيضًا. فبعد عام أو نحو ذلك، صار لديه خمسة موظفين، وأصبح محسنًا طيّب القلب، يعتني بالمشردين، ويقدم لهم الطعام، ويدعوهم إلى الداخل للدفء، ويعطي المال للمتسوّلين في الحيّ.

لقد عمل بجد فوق احتمال أي إنسان. كان يستيقظ في الرابعة صباحًا كي يذهب إلى سوق المبيع بالجملة في منطقة فيستربريا، على الرغم من محاولات زوجته أن تعيده

إلى السرير. كان ذلك وقتهما، فإن لم يتحابا حينها، فلن يحدث ذلك. فهو لم يكن يعود إلى منزله قبل الساعة التاسعة مساءً.

يقول لي: «بعد أن نأكل، نُدير التلفاز لمشاهدة الأخبار. لم أر نهاية نشرة الأخبار منذ سنوات. أنام على كرسيي. لحسن الحظ، توقظني كريستينا، وتجعلني أنظّف أسناني كما لو كنت في الثالثة من عمري، ثم أنهار في الفراش نصف ميّت. من يمكنه أن يلعب دور الحبيب اليوناني في هذه الحال؟»

كل يوم، البرنامج ذاته. أولًا، شراء الزهور، ثم نصب الكشك وعرض البضاعة. ثم محاولة البيع قدر الإمكان. من المهم التّعرف إلى الزبائن الجديّين، والدردشة معهم، وفي بعض الحالات الإطراء عليهم قليلًا. وفي نهاية اليوم، توضيب كل شيء، واحتساب المبيعات، وإيداعها في صندوق الإيداع اللّيلي للبنك. وفي الصباح يبدأ يوم جديد يُعاد فيه كل شيء من البداية.

قلت له يومًا: «لقد أصبحت مثل سيزيف».

لم يكن قد سمع من قبل عن سيزيف، لذلك أخبرته الأسطورة. عاقب زيوس، (كبير آلهة الإغريق)، سيزيف بأن جعله يدفع صخرة من أسفل التل إلى أعلاه، فإذا وصل القمة، تدحرجت الصخرة إلى الوادي، وكان على سيزيف أن يبدأ من جديد.

قصتي كانت لها عواقب.

ذات صباح بدا اليوناني مختلفًا. لم يكن قد حلق ذقنه ذلك الصباح، ولم يبتسم عندما رآني.

«ما خطبك؟ هل أغلقت كريستينا أبواب الجنّة في

وجهك؟»

هزَّ رأسه.

«هل ترغب في كوب من القهوة؟»

ذهبنا إلى مقهى في حيّ مدبوريَربلاتسن، فسمعت القصة بأكملها. لقد قرر أنه لا يريد أن ينال مصير سيزيف. فلم يذهب إلى عمله، وترك كشكه في أيدي موظفيه، وذهب في نزهة. كان ذلك في أحد أيام الشتاء المشمسة المباركة. في البداية، ذهب إلى حديقة فاتبور للاستمتاع برؤية الأمهات الصغار وهنَّ يلعبن مع أطفالهن. معظمهنّ أحضرن معهنّ كلبًا. كان الجوّ يضجّ بالحياة مع نباح الكلاب وصراخ الأطفال وهواتف الأمهات التي كانت ترن دون توقف.

لم يبقَ هناك طويلًا. ربما خمس عشرة دقيقة. ثم ذهب لتناول قهوة إسبريسو في مقهى إيطالي. هناك كان مالك المقهى يفكر بشيء واحد فقط: يوفنتوس، فريق كرة القدم الإيطالي. لم يكن هناك جدوى من محاولة التحدث معه عن أي شيء آخر. لكن قهوته كانت جيدة. ثم انتقل صديقي المسكين إلى المطعم الباكستاني، لكنّه لم يستطع تحمل رائحة الكاري، فاختار السجق الدانماركي من كشك اليوناني الآخر في مدبوريَربلاتسن. بدا اليوناني الآخر قلقًا فسأله: «هل تثق في موظفيك؟ سوف يسرقون بنطالك وأنت تلبسه!» لكنَّ بطلَنا كان مصممًا على عدم الرضوخ إلى مصير سيزيف، فانطلق بعدها إلى فناء كنيسة كاتارينا.

جلس على مقعد يحصي جميع المارة الذين سيموتون ذات يوم. لم يكن سهلًا تقبل حقيقة أن كل هؤلاء الناس

سيموتون. غرق أكثر وأكثر في أفكاره، وأخذ يُحدّث نفسه وقد بدأ الغضب يستولي عليه: «ألن ينجوَ أي منهم؟» أدرك أنه كان يقترب من نقطة حرجة. إذ لم يكن مقبولًا أن يجلس المرء على مقعد حديقة في منتصف النهار يُحدِّث نفسه. فعاد إلى كشك الزهور، وبدأ على الفور يُمازح موظفيه. وكانت فرحته لا حدود لها.

«اسْمَعْني يا صديقي. قد تكون كاتبًا وفيلسوفًا، لكنَّك لم تفهم مغزى أسطورة سيزيف. إنّ زيوس لم يكن يعاقب سيزيف، بل على العكس تمامًا. كان يشفق عليه. إنّ الإنسان لا شيء من دون عمله.»

ما سمعت بهذا التفسير من قبل قط. يتعلّم المرء الكثير في بلد أجنبي. لقد كان محقًّا. أما الآن وبعد أن غادرت الاستوديو، كان ذلك واضحًا.

قال بحزم: «إنَّ الإنسان من دون عمله يحق عليه قول يا حرام»، مستخدمًا الكلمة التركية التي اعتمدتها اللغة اليونانية. الحياة من دون عمل هي هباء منثور. كان هذا هو الاستنتاج الرهيب الذي توصّل إليه.

بدا الأمر وكأنه مبالغة، ومع ذلك فإن الأمر ذاته ينطبق عليّ. كنت أعمل بشكل أفضل في الاستوديو، وكانت الأيام ملأى بالمعنى.

هناك، كان كل شيء يلعب دورًا، حتى لو لم أكن أفهمه دائمًا. موقد الحطب، على سبيل المثال، لم أكن أستخدمه لكنني كنت أحب النظر إليه. كيف بُنِيَ بكل دقة، بكل عناية. ثم كان هناك اسم صانعه، بوليندر، محفورًا بأحرف مزخرفة

جميلة. لقد اندثرت هذه الصناعة، لكن تم تجديد المباني القديمة إلى مكاتب وشقق فاخرة.

عبر نافذتي، كنتُ أرى برج الجرس الذهبي لكنيسة كاتارينا. كان يلمع كشمس صغيرة بعد ظهيرة ساطعة. كان قرع أجراسها يحملني كحلم إلى أجراس كنيسة قريتي اليونانية، أو كنيستي في أثينا. كانت هناك مسارات سماوية تمتد بين بلديَّ الاثنين. أما الأزهار المتسلقة خارج نافذتي فكانت تُزهر في وقت متأخر من الخريف، وكأنها تعانق الصيف الذي مضى.

في النهاية، لا يهم لماذا كنت راضيًا سعيدًا في تلك الغرفة. ما يهم أنني شعرتُ هكذا. لقد صنعت قهوتي، وأشعلت غليوني، وفتحت حاسوبي، فتدفّق العالم إليّ. هكذا كانت حياتي لأربعين عامًا، ليس فقط في غرفة مكتبي، وإنّما أحيانًا في غرف أخرى أيضًا، وأماكن أخرى، ومدن أخرى، وفي القطارات والفنادق، وفي بلاد غريبة، وهنا في بلدي. كنت أعمل طيلة الوقت. تلك كانت حياتي. تلك كانت روحي. كنت أستدعيها كل يوم في كتاباتي.

كيف لي أن أنكر ذلك؟

في أحد الأيام، أخذتني خطواتي بمحاذاة مدرسة سودرا لاتين. كان الصغار قد أنهوا دوامهم للتو وشرعوا يغذّون الخطى إلى منازلهم. كان هناك مجموعة صغيرة تسد طريقي، بينها فتاة، تبدو الأكثر جرأة، فسألتني بكل ثقة: «ما اسمك؟»

ترددت لثانية... ثانية واحدة فقط.

«ثيودور.»

اعتقدت أنها ستضحك. كنتُ مخطئًا. لانت نظراتها الجريئة، وقالت وهي تحني رأسها بوقار:

«اسم جميل.»

في ذلك العصر، اتّخذت قراري. يجب أن أغيّر حياتي بنفس التلقائية التي أعطيت فيها اسمي لتلك الطفلة. أن أعيد اكتشاف ما فقدته.

تركت الاستوديو، وبعت كل ما يمكن بيعه، وتبرّعت بكل ما يمكن التبرّع به، وتخلّصْتُ من كل ما يجب التخلص منه، وأغلقت الباب خلفي. وقلت:

«وداعًا يا صديقي.»

لم يكن لدي أيّة فكرة عما ستؤول إليه العواقب.

في البداية كان الأمر مريحًا. لا حاجة للاستعجال في الصباح، ولا داعي للحيرة أي الملابس سأرتدي، كأن أتساءل على سبيل المثال، إن كنت سأحتاج إلى بنطالي الداخلي الطويل كي يقيني من البرد. لن يكون هناك داع للهرولة إلى المحطة كي لا يفوتني القطار، الذي كان غالبًا يتأخر على أيّة حال. وأعظم ما في الأمر من راحة هو أن أتجنب خفقان قلبي المتسارع المتسائل: هل سأتمكن من كتابة شيءٍ اليوم؟ لقد كان خفقان قلبي الشديد هو ما يمنعني من النوم، حتى عندما كنت أموت تعبًا.

كنت قلقًا أن يفوتني شيء ما. كان ينتابني شعور شبيه بمن يخلد إلى النوم، وقد أوكلت إليه مهمة المناوبة في الجيش، ذلك الوقت الوحيد الذي يحظى فيه جندي عادي بالمسؤولية الحقيقية والقليل من السُّلطة. حتى القائد لا يستطيع المرور من دون كلمة السر الصحيحة. أحببت دوري أن أناوب، أن أحرس رفاقي وهم نيام.

كان الأمر مماثلًا مع كتاباتي. كنت أراقب. إن استيقظت في الثالثة صباحًا، أنهض من فراشي، فأعدُّ القهوة، وأشعل غليوني، وأكتب على طاولة المطبخ، حتى يحين وقت ركوب

القطار إلى «عرين الذئب» الخاص بي.

لماذا تحظى الكتابة بكل هذا الوزن في حياتي؟ ماذا أعطتني؟ وما الذي استبدلته؟ سأقنع نفسي أنها كانت بمثابة حارس يؤدي واجبه في الجيش. لقد كتبت من دون أن أطلب إذنًا، ومن دون أن يتمكن أن يمنعني أحد من ذلك. ربما كان الأمر كذلك: كنت أتولى مسؤولية عالمي.

أما الآن فقد حان الوقت كي أترك كل هذا ورائي. حان الوقت كي أهاجر من نفسي، تمامًا كما هاجرت من بلدي.

خلال أيّامي الأولى من البطالة، لم أشأ أن أغادر السرير إلا لممًا. لحسن الحظ أنني وزوجتي لدينا غرف منفصلة. اسمها غونيلا، لكنّ والدي العزيز لم يتمكن من نطق اسمها بشكل سليم، وكان دائمًا يناديها غيونيلا. قد يكون سبب ذلك أنَّه تعلّم اللغة التركية في صغره، حيث صوت «يو» شائع فيها.

فكّرت فيه كثيرا. لم يتقاعد حتى سن الثانية والثمانين، عندما لم يعد أي أحد على استعداد أن يعرض عليه وظيفة.

لماذا كنت أفكر في الانسحاب؟ من الواضح أنّني كنت أعاني من أزمة ما. لم أكن الوحيد. معظم الكتّاب ينتهي بهم المطاف إلى تلك النقطة في وقت ما. لماذا لم أصر على الاستمرار؟ لقد أغراني ناشري بعروض كريمة جدًا محاولًا حثّي على الاستمرار. كانت كتبي تُباع بشكل جيد في السوق، وإن لم يكن بنفس الدرجة التي كانت عليها سابقًا.

ما الذي دفعني إلى الاستسلام؟

كنت متعبًا بلا شك. ومع ذلك بقيت أقوم بمهام الكاتب في حياتي اليومية، معتبرًا ما أكتبه مادة لأعمال مستقبلية. دوّنت تفاصيل هامة، وحفظت أشياء قد تكون مفيدة للاستخدام لاحقًا على جهاز ذاكرة عقلي، أكان وجهًا رأيته لعشر

ثوانٍ، أو ذكرى حديقة مزهرة بأشجار اللوز خارج قريتي قبل سبعين عامًا.

كانت الحياة لا تزال أخّاذة، وإن لم تكن مثيرة كما في الماضي، عندما كنت أرى البحر فأرغب بممارسة الحب معه. الآن لم أعد أراه، لكنني أتذكره فحسب.

هل حان الوقت كي أعودَ إلى جذوري؟ أيمكن أن يكون ما تبقّى هو الماضي وليس المستقبل؟

ذاك ما كان يشغل بالي.

يجب أن أعترف: كنتُ أشعر بالخجل أيضًا. لقد أضحى الفقر في ستوكهولم أكثر وضوحًا. متسوِّلون في الشوارع، في الساحات، في القطارات. المشرَّدون. في الوقت ذاته ازدادت الكراهية نحو الأجانب، وأُشْعِلَتِ النيران في مراكز طالبي اللجوء، وارتفعت شعبية أشد عتاة معادي الهجرة مع كل استطلاع جديد للرأي.

لم أكن مجرد مهاجر، بل كنت يونانيًا أيضًا. وتلك لم تكن أفضل أوقات اليونان. فقد وصل الدَّيْن القومي فيها إلى مستويات فلكية. وكانت أوروبا بأكملها تشتعل سخطًا على هؤلاء اليونانيين الكسالى العاطلين عن العمل، الذين وُلدوا كي يكونوا متقاعدين. رسم كاريكاتوري سياسي في صحيفة هولندية أظهر يوناني سمين في ملابس النوم بإطلالة صفيقة، يمد يديه الاثنتين إلى الاتحاد الأوروبي؛ بإحدى يديه كان يتسوَّل أموال دافعي الضرائب الأوروبيين، وباليد الأخرى كان يعطيهم الإصبع.

ذكّرني ذلك بملصقات الدكتور جوبلز إبّان الاحتلال

الألماني، التي كانت تصوِّر اليونانيين كقرود وقحة تطارد العذراوات الألمانيات. كما جعلني أفكر بمقدمة روايتي الأسياد والفلّاحون، التي أعلنت فيها أنني أود التحدث عن بلدي من دون خجل ومن دون فخر. كان ذلك عام 1973.

في عام 2015، كنت بحاجة إلى كل الفخر الذي يمكنني استجماعه من أجل التعامل مع العار الذي استولى عليّ. كانت اليونان تُذَلُّ كل يوم، ومن كل أحد.

أحصى الاتحاد الأوروبي مديونات اليونان، في الوقت الذي كان آلاف اللاجئين يتعرضون للخطر يوميًا، وأحيانًا يفقدون أرواحهم في أرخبيل بحر إيجه. رأيتُ ذلك بأم عيني في فصل الربيع في جزيرة سيمي، حيث سافرتُ لرؤية الدَّيْرَيْن الجميليْن جدًّا هناك. كان معظم اللاجئين من الشباب، لكن كان هناك ثمّة نساء وأطفال أيضًا. كان النهار قد انتصف، والحرارة تشُقُّ الأنفس. تمدَّد اللاجئون الواصلون حديثًا مرهقين خارج مبنى حرس الميناء. لم يتحدثوا مع بعضهم، ولم يحاولوا أن يتكلموا إلى أي شخص آخر. ساد هناك صمت مطبق. لقد استسلموا إلى مصيرهم، والذي كان في تلك اللحظة عبارة عن شابَّيْن من حرس الشاطىء.

جلست في مقهى صغير متواضع على الشاطئ الضيق. وبعد ثلاثين ثانية ظهر أمامي جمال أخّاذ. كانت طويلة القامة، ذات شعر فاتح، وجسم نحيل. لا بد أنّها سائحة تريد أن تسألني شيئا ما، هكذا اعتقدت. لكنها، في الواقع، كانت صاحبة المقهى. طلبت فنجان إسبريسو مضاعَفًا، لأنني أعرف أن الإسبريسو المفرد في الأماكن السياحية في اليونان يعتبر

نصف إسبرسو.

تساءلْتُ: «ماذا سيحصل لهؤلاء الناس؟»

فأجابت: «سيتدبرون أمورهم تمامًا كما تدبّرنا نحن أمورنا.»

لم يكن هناك الكثير من الناس في المقهى، فسردت لي قصتها. لقد قدِمَتْ إلى اليونان من ألبانيا محمولة على ذراعيْ والدتها. كان الأمر قاسيًا في البداية. ثم وجد والداها عملًا، فذهبت إلى المدرسة، وتعلمت اللّغة بسرعة البرق، وفي سن السابعة عشر التقت زوجها الذي كان من جزيرة سيمي. والآن...

«الآن لدي حفيدان.»

كان صوتها مليئًا بالثقة والتحدي.

لم أستطع أن أمتلك نفسي: «لماذا لم يكن لدي جدة مثلك!» وبفضل هذا الإطراء، لم يُسمح لي أن أدفع ثمن قهوتي. شاركتها الرأي. فوالدي كان لاجئًا وأنا كنت مهاجرًا. لقد تدبّر كلانا أمورنا.

لكنّ الأوقات مختلفة الآن.

لمست ذلك عندما سافرت إلى أثينا بعد شهرين. في الجزء الذي أسكنه من المدينة، كانت المقاهي تعجّ بالعاطلين عن العمل، والباعة المتجولون في ازدياد. اشتريت عشر ولاعات من أحدهم، ولم تعمل أي واحدة منها.

كان مدخل أحد متاجر الملابس الكبرى في المدينة يحرسه كلبان كبيران من نوع الراعي الألماني. كانا مدرَّبَيْن للتمييز بين أنواع الناس، فيهزان ذيلهما برضا عندما يظهر

زبون جدّي، بينما يزمجران مهدِّدَيْن نحو الفقراء، المهاجرين واليونانيين، الرجال والنساء على حد سواء.

صاحت امرأة مسنّة: «بحقِّ اللّه. لم يكن لدينا كلاب خارج المتاجر حتى خلال سنوات الاحتلال!» (هكذا كانت تُسمّى الفترة من 1940 إلى 1944. أربع سنوات من نظام الإرهاب النازي، والشُحّ والنقص في كل شيء.)

الفقر ليس مرئيًا فقط؛ يمكنك أن تشمَّه أيضًا. لقد اختلطت رائحة النتن مع العطور باهظة الثمن واستقرّت فوق مركز المدينة. «الرائحة الكريهة للبشرية»، هكذا كان سيصفها صديقي كوستاكيس لو كان على قيد الحياة.

المتسولون في كل مكان. البعض كان مشوَّهًا يعرض تشوهاته. نساء يرقدن في الشوارع مع أطفال صغار في أذرعهنَّ. شبّان بكامل أناقتهم يجثون متسوِّلين. كنّا نمرّ عنهم، بعضنا بحياء وخجل، وبعضنا بلا مبالاة مقصودة.

«الدراخما هي أقدم عملة في العالم»، هكذا تُعْلِمنا لافتة خارج البنك الوطني اليوناني. لكن الدراخما لم تعد موجودة. مع ذلك، يمكننا رؤية بقايا أثينا القديمة تحت أساسات البنك.

ما باليدِ حيلة. كنت أُصاب بدوار خفيف عند مواجهة مثل هذه التجارب المعاصرة. كانت تختلط في رأسي خيالات من صور الحياة اليومية للأثينيين القدماء مع الواقع من حولي. كل شيء كان مغموسًا بالفقر، بالبؤس التّام، بالمشردين، بكل من ليس لديه سقف فوق رأسه.

ينقسم دماغي إلى نصفين كبطيخة ناضجة، بينما قلبي يتقلص كحلزون. وهذا ما يصيبني بالدوار.

ساحة إكزارشيا هي مكان أذهب إليه دائمًا عندما أكون في أثينا. هناك كانت مدرستي الثانوية القديمة خلال الخمسينات، وهناك كنت أجلس أحيانًا مع صديقتي، برغم القيود الصارمة. كنا نأكل العسل الممزوج بالزبدة. وإن لم يكن في جيبي ثمنه، نجلس ببساطة على مقعد تحت شجرة الأكاسيا.

أما الآن، فقد احتل تجار المخدرات وزبائنهم الساحة. وفتيات صغيرات كنّ على استعداد لبيع أنفسهن لشراء الحقنة التالية. يتجوَّل التجار وقد لفّوا بضاعتهم في حزام حول أجسامهم. أحيانًا قد ينشب شجار. لا يوجد ضابط شرطة واحد في الأفق.

فجأة، بدأ تاجر يضرب فتاة نحيلة صغيرة بكل شراسة. لم تجرؤ حتى أن تصرخ ألمها. لم يُغِثْها أحد باستثناء صديقها الذي استجمع بقايا كرامته الرجولية وتدخَّل.

صاح: «أتضرب امرأة، أيها الوغد؟» فتلقّى لكمة من التاجر في صدره أطاحت به أرضًا.

لم يغمض لي جفن تلك الليلة. كان من المستحيل أن أنسى صوت صديق الفتاة. كان أجشّ من فعل المؤثر، يائسًا، لكنّه رجولي، ولم يستسلم.

«أتضرب امرأة، أيها الوغد؟»

في الثالثة صباحا، خرجت إلى شرفة غرفتي في الفندق. من بعيد، لفّت المدينة ظلمة الجبال الحالكة، والأضواء الباهتة المنبعثة من التلال المحيطة. وتوهَّج الأكروبوليس في عتمة

الليل كفراشة كبيرة لا مثيل لها.

أردت أن أصرخ بأعلى صوت ممكن حتى يسمعني الجميع:

«أتضربون اليونان، أيها الأوغاد؟»

لم أفعل.

مكتبة
t.me/t_pdf

لم أرَ مدينتي هكذا قطّ. كان الفقر صديقًا قديمًا، لكن ليس هذا البؤس. محالّ مغلقة، شوارع غير مضاءة، مشردون ينامون في كل مكان، نتن البراز، وفوق كل هذا، أجواء طافحة بالعنف جعلت قلبي يخفق أسرع. لأول مرة أذكرها في حياتي، كنت أخشى الخروج وحدي في أثينا. وذاك كان الجانب الأكثر إهانة. التغريبة القصوى. أعطاني الناس نصائح جيدة: لا تذهب إلى هناك. لا تحمل الكثير من المال. لا تحمل القليل من المال. هم ملاعين قد يضربونك ويهشمونك تهشيما.

«هم»... من كانوا؟ بعض الجناة كانوا بالتأكيد يونانيين، لكن من يسدون النصح لي لم يكونوا يقصدونهم، إنّما كانوا يقصدون المهاجرين واللاجئين. إنَّ النظرة الجماعية ترى فقط الذَّنب الجماعي. لقد شعرت بذلك أيضًا، في السويد، عندما اندلعت أزمة الدَّيْن القومي اليوناني. وبعد واحد وخمسين عامًا من العيْشِ في السويد، أصبحت يونانيًا مرة أخرى، أتنقّل من محطة راديو إلى أخرى، ومن قناة تلفزيونية إلى التي تليها. كنتُ شريكًا في الذَّنب الوطني لليونانيين.

في إحدى الأمسيات، وفي ساحة الحيّ الذي أسكن فيه في أثينا، جلسْتُ في أحد المقاهي البسيطة التي تقدم

ما تسميه أمّي «طعام العاهرات»، وهو عبارة عن دجاج أو لحم خنزير مشوي أو شيء آخر سريع وسهل التحضير. كان النادل من ألبانيا، لكن لغته اليونانية كانت جيدة جدًا. سأل مبتسمًا: «ما رأيك بجبن الفيتا، والهندباء المطبوخة، والريتسينا كالمعتاد؟»

لقد تناولت الطعام هناك مرة واحدة من قبل، ومع ذلك فقد تذكرني النادل، وتذكّر طبقي التقشفي. وددت أن أعانقه. لم يكن أكثر ذكاء من النوادل الآخرين، كما أن ذاكرته لم تكن أفضل. لكنّه كان يمتلك يقظة الأجنبي.

رأى، سمع، تعلّم، وتذكر بكلِّ حواسه. لا راحة قط؛ ينام في الليل نومًا خفيفًا كأرنب وحشي. كنت هناك، وعرفت. إن النّاس لا تجلس تنتظر الموت.

لو أظهرت أوروبا المزيد من حسن النية، فقد تتدبر أمور جميع اللاجئين إليها. لكن أوروبا كانت تريد أموالها.

الجزء الثّاني

في أول يوم لي، بعد أن تركت مكتبي وتركت العمل، كنت فرِحًا لأنني أستطيع النوم إلى أي وقت أشاء. لكنّني استيقظت في الثالثة والنصف صباحًا، وكانت نجمة الصباح مشعّة برّاقة، كما لو أنها تستدعيني للاستجواب، ولم يكن عندي ما أدافع به عن نفسي.

عدت إلى السرير. ويا للغرابة، نمت مرة أخرى. بعد ساعتين، حان وقت الاستيقاظ. أسعدني أن أقرأ صحيفتي دون أن أسترق النظر إلى الساعة. لكن لم يكن في الحسبان أنني سأتشارك الصحيفة مع زوجتي.

عندما كنت أخرج للعمل، لم تكن هناك مشكلة. كانت هي لا تزال في السرير عندما أنحني لأعطيها قبلة الصباح، قبل أن أغادر، فتمتم «ممم»، دون أن تفتح عينيها.

الآن لم تقل «ممم»، لكنها شرعت تعد فطورها بعناية فائقة. ولم يكن الأمر بالبساطة التي أتبعها: شريحتان من الخبز الذي أخبزه بنفسي كل يوم سبت، أتناول إحداها مع القليل من بيض السمك المعلب الرخيص، والأخرى مع الجبن ومرّبى البرقوق، والذي أيضًا كنت أصنعه بنفسي كل صيف في جزيرة غوتلاند. بطبيعة الحال، كنت آكل وجريدة الصباح مفرودة

أمامي، كخريطة تساعدني في تحضير أنشطة اليوم.

أحببت تلك الصباحات. وكذلك فعلت زوجتي. لكنّنا صرنا كلانا الآن في المطبخ في الوقت ذاته. كانت ترتدي يومئذ رداءها الأحمر-الأزرق الذي اعتقدت أنه يناسبها أفضل كان في الغسيل- فقبَّلَتْ رقبتي وبدأَتْ طقوس الإفطار.

أولاً، كسرَتْ بيضة، ثم شهقت من المفاجأة. فالبيضة، على الرغم من صغر حجمها، كان تحتوي على صفارَيْن. اعتدنا أن نشتري البيض في جزيرة غوتلاند من مزرعة مجاورة. كنّا ببساطة نأخذ قدر ما نشاء، ثم نترك ثمنه في صندوق. بالكاد كنّا نرى أي أحد هناك.

تأملنا بإعجاب صفارَيْ البيضة لبرهة قبل أن ينتهي بهما الأمر ملقَيْن بالمقلاة مع شريحتين من اللحم المقدد. بعدها، قطَّعَتْ بضع شرائح من الفلفل الأحمر، وشريحة من الجبن، وقطعة خبز رفيعة جدًا وضعتها في طبق بجانب الفرن.

كان والدي، مثل زوجتي، مغرمًا بشرائح الخبز الرقيقة. وكانت والدتي، التي كانت تجد متعة كبيرة في الطعام، تحاول إغاظته ممازحة. مازحْتُ أنا أيضًا زوجتي، لأنني كنت أحب قطع الخبز السميكة جدا، لكنها تجاهلتني وبدأت تصُفُّ جميع الفيتامينات التي تتناولها، عددًا من الكبسولات التي كانت من المفترض أن تقوّي مفاصلها. ثم أشعلت الراديو بينما كانت تغلي عشرة ليترات من الماء لإعداد الشاي الخاص بها.

جعلني ذلك أفكر في صديقي أوديس، الذي اعتاد أن يذهب بكل شيء إلى حدِّه الأقصى. إذ مكث في الاستوديو الخاص بي بعض الوقت بهدف الابتعاد عن الطعام اليوناني،

لأنه أراد أن يخسر بعض الوزن. ولشهر كامل، اتّبع نظامًا غذائيًا صارمًا ادّعى أنه اخْتُرِعَ من قبل الجيش الإسرائيلي. فلم يأكل شيئًا سوى الخيار. وفي يوم ما، لم يطق الاحتمال، فأمسكْتُ به متلبسًا، يأكل قالبًا كاملًا من الجاتو، وهو مختبىء خلف الشجيرات في حيّ مارياتورييت.

في المساء، كنت ألعب معه الورق (الشدّة)، ألعابًا بسيطة لا تتطلّب أي مهارة سوى الحظ. كان دائما يهزمني، فيتفاخر: «يا إلهي، كم أنا لاعب ماهر!»

لم أكن أقول شيئًا، وماذا كان بوسعي أن أقول؟

في أحد أيام الآحاد، جاء أوديس إلى منزلنا. أراد أن يطهوَ العشاء لنا كي يتباهى بمهاراته. وكانت زوجتي سعيدة جدًّا بهذا الترتيب. وكانا، هي وأوديس، فرحيْن بالطعام، وصاخبيْن جدًّا. قرقعا بالصحون والكؤوس، وطنطنا بالشُّوَك والملاعق، وحركا محتويات الطناجر بكل همّة وشغف، وما إن جهز الطعام حتى اندبّا في تناوله. قلت لغونيلا: «على مهلِكِ.»

فشرع أوديس يدافع عنها: «دع الفتاة تستمتع بطعامها، أيُّها السّادي.»

لقد فارق الحياة منذ فترة. إنَّ رفاقي المتوفين في تزايد.

أمّا فيما يتعلق بزوجتي، فهناك أمر مؤكد. سأغادر أنا أولا. فهي أصغر مني بخمس سنوات وخمسة أيام بالتمام والكمال، كما أنها بصحة أفضل. رؤيتها تأكل جعلتني سعيدا. كان لديها طريقة لإمالة رأسها إلى اليمين؛ إحدى العادات التي بقيت معها منذ كان شعرها طويلًا. وكذلك طريقتها في فتح فمها لهنيهة بلا ضرورة قبل أن تحشوَ الطعام فيه، يرافقها ابتسامة

ساخرة على شفتيها وكأنّها تقول: «فقط انتظر يا هذا.»
والآن استولت على نصف الصحيفة أيضًا.

تزوجنا منذ ست وأربعين سنة، لكننا لم نكن زوجين يتبادلان المنفعة. لم نحلم بعمل كل شيء معًا، أو في الوقت ذاته. كلانا أراد أن يكون مستقلًا، وكنا كذلك. طالما كنّا نعمل، لم تكن هناك مشكلة، حتّى عندما تقاعدت غونيلا في سن الستين، وواصلت أنا الذهاب للعمل كل صباح. فكانت هي تقضي يومها كما تشاء. لمدة سبعة عشر عامًا، كان لديها المنزل بأكمله خالصًا لها، وكذلك صحيفة الصّباح.

الآن كنّا في المنزل معًا. لم تكن مرتاحة وهي تروح وتجيء من المطبخ دون النظر إليّ. شعرْتُ بالإنزعاج ذاته، إذ إنني يجب أن أكون جالسًا إلى حاسوبي. يجب أن أكون مشغولًا أعمل.

فجأة رنّ هاتفها الخلوي. لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة بعد.

من بحق الجحيم كان يتصّل بها في هذه الساعة؟ هل كان هذا يحدث طوال الوقت، فيرّن هاتفها بمجرد أن أغادر المنزل؟ مع ذلك، لم أقل شيئا. فقط أشرت إليها أن تواصل المكالمة من صالة الجلوس.

في تلك الأثناء، ظلَّ عقلي يعمل وقتًا إضافيًا. لا بد أنها كانت ترى شخصًا آخر خلال كل تلك السنوات التي كانت تمارس فيها رياضة الركض في الغابات وعلى الشواطىء، مع

أولئك الأفراد النشطين الذين تقاعدوا مبكرًا. ناهيك عن كل تلك اللقاءات، والأمسيات في المسرح ودار الأوبرا، والمجموعات النسائية. في شبابي كنت عُطَيْلًا حقيقيًا. وذات مرة، رأيت صديقتي في أثينا تبتسم لرجل آخر، فوقعت مغشيًا عليّ من الألم.

لكن ذلك قد انتهى. فهذه الأيام لم يكن لديّ حتى الطاقة للإغماء. الأمر الجيد حول التقدم في السن هو أنك تفكر في مستقبل الآخرين أكثر مما تفكر في مستقبلك. وغونيلا لا تزال جذابة على الرغم من أنها تجاوزت السبعين. هذا جعلني سعيدًا. إنه أحد أسرار الحياة العظيمة أن تحب نفس الوجه لأربع وستين سنة.

في الوقت نفسه، شعرت كما لو كنت أتطفل على حياتها الخاصة كضيف غير مدعو. لحسن الحظ، وكما ذكرتُ من قبل، كان لكل منا غرفته الخاصة. لكنّني كنت أذهب إلى غرفتي للنوم فقط. لم أقرأ أو أكتب أو أدخّن هناك. كنت أفعل كل هذا في الاستوديو. هناك احتفظت بكتبي وسجلاتي وغلاييني. وغرفتي في المنزل كانت تُشعِرني بالغربة. كانت بلا بهجة، غريبة وضيّقة.

هل كنت حقًّا سأقضي أيامي في هذا السجن؟

تمزق قلبي ألمًا.

ماذا فعَلْتُ؟ كان غباء خالصًا أن أغادر عشّي.

ما الذي افتقدته؟ أكثر من أي شيء، نزهة الصباح مسافة نصف كيلومتر تقريبًا من المنزل إلى محطة القطار، حتى لو كان ذلك عذابًا أحيانًا، خاصة في الشتاء. فقد اعتادت ساقيّ على ذلك، وكذلك روحي. كنت أمشي مع أحد الجيران، نتبادل بضع كلمات مع أحد المارّة ممّن يملكون كلبًا، خاصة مدير البنك السابق، اللطيف جدًا، الذي كان يخرج برفقة كلبته الألمانية الصغيرة. كان كل شيء يثير فضول الكلبة، فتتوقّف باستمرار لتشمّ الأرض. فيقول مدير البنك بمرح: «إنها تقرأ صحيفة الصباح». كنت أيضًا ألتقى أطفالًا في طريقهم إلى المدرسة. بعضهم اعتبرني عمًّا مألوفًا، فكانوا يحيوني فيقولون: «مرحبا»، وندردش لبعض الوقت. وهناك أختان، أسمتاني «لوثر»، كما أخبرتني بذلك أمهما وهي تضحك دون أن تشرح لي السبب وراء تلك التسمية. لربما يعود ذلك لأن الفتاتيْن كانتا تراياني متوجهًا إلى عملي وأنا أحمل حقيبتي على ظهري بكل جد واجتهاد. (ولوثر هو نسبة إلى المذهب اللوثري البروتستانتي الذي يعتنقه عامة أهل السويد، وهو رمز للعمل الجدي والتفاني والالتزام).

أبقيْتُ نفسي على اطلاع بما يجري في المنطقة. من

اشترى أحدث طراز سيارة فولفو، من سافر في عطلة، من استبدل سقفه، من كان ينوي بيع بيته، وفي بعض الأحيان السبب وراء ذلك. كان الطلاق والشيخوخة هما السببان الأكثر شيوعًا.

تابعت المواسم في الحدائق. الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء. وزهر التّفاح، والكرز، والإجاص. الكرز الأرجواني وكرز الطيور. رائحة الزهور، ورائحة الفاكهة التي سقطت عن الأشجار. تغيّر الضوء. ففي بعد ظهيرة أحد أيام الربيع عام 1968، كنت أمشي هذا الطريق بعينه، ولم أكن أدري أن حياتي كانت على وشك أن تأخذ منعطفًا مختلفًا.

الفتاة التي أصبحت زوجتي كانت تنتظرني عند بوابة منزل عائلتها. كنت على موعد كي أقابل والديْها. وبعد بضع سنوات، بنَيْنا منزلنا على قطعة الأرض المجاورة.

هذه الأفكار وما شابهها كانت تجول في خاطري في الطريق إلى المحطة. أحيانًا، أثناء فترات العمل المكثف، كنت أسلك طريقًا مختلفًا كي أتجنب كل أحد وكل شيء.

كنْتُ أترجّل من القطار في محطة سودرا جنوب ستوكهولم، حيث أبدأ مشيي لمسافة تزيد قليلًا عن كيلومترين إلى الاستوديو. كل يوم، ألتقى بنفس الأشخاص. كنّا نعرف وجوه بعضنا، لكننا لم نعرف أي شيء آخر عن بعض عدا ذلك. كنّا نتبادل ابتسامة قصيرة، كإشارة ما تؤكد سعادتنا لأننا ما زلنا على قيد الحياة. بعدها كان كلّ منّا يذهب في طريقه.

في المدينة، كان مجرد تبديل الأرصفة كافيًا للدخول في مغامرة جديدة. كانت هناك أيام، على وجه الخصوص في أوائل

الربيع، لم أرغب فيها بالذهاب مباشرة إلى العمل. فأتوجّه إلى المقبرة في كنيسة كاتارينا. هناك، يرقد رجل عرفته وأحببته: يوهان بِرْيِنسترولیه. وهو من أعدَّ الفيلم الخاص بروايتي الأجانب. كتبنا النّص معًا. كتبناه بينما كانت واحدة من أكثر مَنْ عرفت حيَوِيَّة وخيالًا وتعددَ موهبة، تتجوّل في الشقة حاملةً كوبًا من النبيذ الممزوج بالماء، وهي تلبس بنطال جينز يُظهِر نصف مؤخرتها، لأنها قصّت فتحة كبيرة فيه. تلك كانت ماري لويز إيكمان، الفنانة والمخرجة المسرحية السويدية.

مات يوهان فجأة، شابًا نسبيًا.

أحببت أن أجلس في المقبرة، ثملًا بعبق الربيع والموت وكل تلك المشاعر والأفكار التي تحيط بالمكان، مقتنعًا تمامًا بأن هناك معنى لكل شيء. معنى لم أتمكن من رصده وتدوينه.

في الوقت الذي أصل فيه الاستوديو، أكون قد شبعت من الحياة. لا أعرف أن أعبر عن ذلك بطريقة أخرى. لم أكن بحاجة إلى أي شيء آخر. أو... أيّما احتجت إليه، وجدته في كتاباتي.

تلك كانت بنات أفكاري عندما جلست إلى حاسوبي في غرفتي في المنزل. لم أستطع أن أستقرّ في مكاني. كما يقول المثل، كان النمل يملأ سروالي. وبدلا من الكتابة، اخترت أن أتصفح عددًا قديمًا من جريدة غوتلاند. صادفت كلمتَيْن مُركبتَيْن لم أرهما من قبل باللغة السويدية ostor وتعني حرفيًا: غير كبير، وكلمة fingå وتعني: أن يذهب المرء في نزهة لطيفة. اجتاحتني موجة عارمة من السعادة. بعض الكلمات لا تُقاوَم. عليكَ أن تتذوَّقَها على الفور، وبالفعل صحتُ مُحدِّثًا زوجتي: «سأخرج في نزهة لطيفة على الأقدام تحت هذه الشمس غير الكبيرة». لكنّها كانت غارقة في بريدها الإلكتروني ولم تسمعني.

في الشارع، لم أكن متأكدًا مما يجب أن أفعله. أين أذهب الآن، وأنا غير مضطر للّحاق بالقطار؟ هل أسير على غير هدى؟ وبما أنّني لم أعد أكتب، فما الذي يجب أن أفكر فيه؟

تنزَّهت بذهن فارغ، لكن سرعان ما انضم إليّ صديقي كوستاس. اعتاد أن يكون درعي الحامي، لكنّه ميت الآن. كان هو مَن حماني عندما تظاهرنا ضد المجلس العسكري في اليونان، وبعدها في كلّ من السويد وإيسلندا حيث ضباط

الشرطة طويلي القامة، أقوياء، وعلى أهبة الاستعداد للقتال. تلقى كوستاس الكثير من الضربات، أما أنا فلا.

كوستاس، الذي كان عامل بناء، ويمتلك ظَهْرًا أشبه بباب الحظيرة، دائمًا يضع نفسه أمامي كجدار حاجز. كان دائمًا أمامي، ودائمًا قبلي. غادر بنفس الطريقة. قبلي. مرض خطير أضناه، ورفض احتماله. الموت لم يُهِنْه. لكنّني أتخيَّل أنّه مات وحيدًا في غرفة مرضه عند الساعة الثالثة صباحا. وبقينا خلفه كي نتذكره.

مع هذه الأفكار، انتهى بي المطاف بعيدًا عن الحيّ الذي أسكن فيه، ووصلت إلى مكان كان منذ قرابة المائة عام قرية صغيرة. قلّة من المباني بقيت من تلك الأيام، والكثير من المنازل الجديدة تصطفّ أمامها سيارات باهظة الثمن. كانت هناك أيضًا آثار خَرِبَة، وضع مجلس البلدية لافتة أمامها. هذه الجدران المتداعية كانت مدرسة القرية. لكن هذه المعلومة لم تكن هي ما أثار مشاعري، إنّما حقيقة أن الطريق المؤدي إلى تلك الآثار كان يحمل لافتة خاصة: «مسار المدرسة القديمة». حبست أنفاسي للحظة.

تابعت المسار عبر الحقول والمروج المفتوحة حتى اختفى في الغابة كثعبان خائف. هذا المسار صنعته خطوات الأطفال. لم يصطحبهم أحد إلى المدرسة في ذلك الوقت. كان عليهم الوصول إلى هناك بطاقتهم ست مرات في الأسبوع، في الأيام المشمسة أو الملبدة بالغيوم، في المطر والرياح والبرد.

أسبوع بعد أسبوع. سنة بعد سنة. ذهابًا وايابًا.

هؤلاء كانوا الأطفال الذين حوّلوا السويد ذات يوم من

مجتمع شبه إقطاعي إلى دولة رفاه اشتراكية ديموقراطية حديثة.

مسارهم كان لا يزال هنا.

تساءلْتُ، ماذا سيقول هؤلاء الاشتراكيون الديمقراطيون الأوائل عن أزمة اللاجئين؟ كان المجتمع منقسمًا إزاءَها. البعض لم يكن يريد أي شأن له باللاجئين. بينما اعتقد آخرون أن السويد يجب أن تدعم حقوق طالبي اللجوء دون تحفظ. اعتقدْتُ ذلك أيضا. لكن تدفق اللاجئين استمر. مائة وستون ألف شخص طلبوا اللجوء في فترة قصيرة. ولم تستطع السلطات المعنية التعامل مع هذا الكمّ، إذ كانوا مكبّلين بقواعد وأنظمة قديمة تهدف إلى تسهيل عمل المسؤولين بدلًا من تلبية احتياجات اللاجئين. الهلع كان حاضرًا. عند هذه النقطة، قرّرت الحكومة الاشتراكية الديمقراطية إغلاق الحدود، بشكل أو بآخر. وُصفت الخطوة بأن لا مفرّ منها.

لم أوافق هذا الرأي، وعبَّرْتُ عن موقفي. ويعود ذلك في جزء منه، إلى أنّ حقوق الإنسان هي أمر لا يمكن التفاوض فيه بناء على خصوصية كل حالة. وفي جزء آخر، لأن السويد ستحتاج في المستقبل القريب إلى هؤلاء الناس من أجل الحفاظ على توازن ديموغرافي صحيّ، وسوق عمل فعّال.

لكنّ كلماتي لم تسقط على أرض خصبة.

لقد تجرأت ورفعت صوتي من قبل. وبعد الهجوم الفظيع على مكاتب تشارلي إبدو، المجلة الساخرة في باريس، تفجّر نقاش حول حرية التعبير. وفي هذا المجال، فإن تقاليد السويد رائعة. فالرأي السائد كان يدعم أن لا حدود لما يريد أن يقوله شخص ما، طالما لم يكن فيما يقوله أي تنمّر أو مضايقة لأية مجموعة عرقية أو دينية معيّنة.

نُقِلَ عن فولتير مرارًا قوله: «أنا لا أتفق مع ما تقوله، لكنني سأدافع حتى الموت عن حقك في أن تقوله». لا أعرف إن كان فولتير قد قال ذلك قبل قصة الجبنة أو بعدها، لكنّني متأكد أن مقصد قوله لم يكن في أغلب الأحيان مطابقًا لتفسير الكثيرين، وهو حق الإنسان في الإساءة لغيره.

تعذّبْتُ. بداية، لا أعتقد أن كل أقوالنا هي عبارة عن «آراء». على سبيل المثال، ليس رأيًا أن يُقال إنَّ جميع اليونانيين كسالى، أو إنَّ اليهود هم دون البشر. إنّ مقولات كهذه هي حضّ لمعاملة هؤلاء الناس بشكل مختلف عن الآخرين، ليس فيما يتعلق بهم كبشرٍ فحسب، إنّما أيضًا بديانتهم، ومعتقداتهم، وقِيَمهم، ومعاييرهم، وجمالياتهم، وأسلوب حياتهم. فيتولّى المرء، بكل بساطة، زمام السلطة لمهاجمة حق هؤلاء الناس

في الوجود. هكذا بدأت النازية. أصبح اليهود دون البشر، وتعرضوا للمخاطرة بوجودهم، حتى لم يلح في الأفق أي حل آخر سوى التخلّص منهم.

كانت حرية التعبير بلا حدود أمرًا يتعلّق بالموارد والقوة أيضًا. إن كنتَ خارج منظومة وسائل الإعلام، فليس لديك أية فرصة للتعبير عن نفسك.

أن تُعلّق على الشأن العام هو شيء، وأن تُعلّق على شؤون جيرانك هو أمر آخر تمامًا. فجميع الحريات لها حدّ طبيعي: الشخص الآخر.

أيًّا كان ما تفعله أو تقوله، عليكَ أن تأخذ بعين الاعتبار وجود الشخص الآخر. يمكنك تجاهل ذلك بالطبع، لكن حتمًا ستكون هناك عواقب. فستنشأ المرارة، والكراهية والإرهاب، وحتى الحرب الحقيقية. وهنا لا يُجدي أن نختبىء خلف فولتير.

وإن أردنا أن نفهم بعضنا، فعلينا أولًا أن نقبل بوجود الشخص الآخر وبأن مبادئه قد تكون مختلفة. فقط عبر العلاقات المتكافئة، يُبنى الفهم الحقيقي، وتنشأ الالتزامات والحقوق المتبادلة.

عندما كنت طالبًا في المدرسة الثانوية في أثينا، قرأنا قصة عن شجار في اليونان القديمة بين قائدي أثينا وإسبارطة. أصبح هذا الأخير غاضبا ورفع يده ليوجه ضربته، لكن الأثيني قال بهدوء: «اضْربني، لكن اسمع أولًا!»

وهذا ما حصل بالفعل، وفاز الأثيني بالنقاش.

لقد حان الوقت لنستمع إلى ما يود الضعيف في المجتمع أن يقوله. لن يتوقف أحد أن يكون مسيحيًا لأن المسيح اسْتُهْزِىء به. لن يتوقف أحد أن يكون مسلمًا لأن محمدًا اسْتُهْزِىء به. في الواقع، ما يحصل هو العكس، يزداد المسيحيون مسيحيَّة، ويزداد المسلمون إسلاميَّة.

لقد فهم المعظم هذه النقاط البسيطة، ما عدا عدد معدود من المحررين، والصحفيين، والفنانين. اعتقدوا أنهم مُؤهلون لحرية بلا حدود، ودافعوا عن حقهم المقدس والحصري في احتقار، وإهانة، وسخرية الآخرين ومعتقداتهم. تصرفوا كعريف في الجيش يدرب أناسًا ليسوا تحت إمْرَتِهِ.

ازداد غضبي من هذه الغطرسة.

يُقال إن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على الانتحار. هناك استثناء واحد: العقرب. رأيت العقارب بأم عينيّ في قريتي اليونانية. فعندما تجد نفسها محاصرة في حريق عشبي، تبحث عن مخرج. وعندما تدرك أن لا مفر، تهدأ وتلدغ نفسها حتى الموت قبل أن تصل النار إليها.

بعض الحريات الديمقراطية تشبه العقارب في قدرتها على تدمير نفسها. إذ من الممكن جلب نظام استبدادي أو ديكتاتوري بالوسائل الديمقراطية. وفي انتخابات ديمقراطية، يُمكن التصويت لحزب هدفه إسقاط الديمقراطية. فتُخنق حرية التعبير بمساعدة حرية التعبير. فللمرء الحرية أن يدعم الآراء التي تهدف إلى خنق آراء الآخرين كليًا أو جزئيًا. وهذا الوضع ليس بالخبر الجديد لأي أحد. ويُشار إليه بـ «معضلة الديمقراطية». وإلى حد كبير، تم تفسير الأحداث المأساوية في باريس أنها هجوم على حرية الرأي والتعبير. وبغض النظر عمّا إذا كان هذا الرأي سليمًا -أنا شخصيًا، لا أؤيده- فقد يكون مناسبًا مناقشة مدى حدود هذه الحريات. قد يكون هناك قِيَم أعظم، كقيمة السلام، والحوار بين الثقافات والشعوب المختلفة، أو سواسية الناس.

إنّ حرية الرأي هي فكرة عقْرَبِيّة نموذجية عندما تسمح أيضًا بعرض وجهة نظر يجب منعها. إن أي فرد أو منظمة لديها الحق في التعبير، وتوزيع المنشورات، وتنظيم الاجتماعات، وأحيانا في إدماء أنف الخصم، وحينئذ يمكن إدانتهم بالعنف. لكن لا يمكن إدانتهم للتعبير عن رأيهم.

إنَّ المجتمع لا يريد أن يمنع الآراء ولا يستطيع ذلك، لكنه يريد أن يمنع الأفعال، ويستطيع ذلك، أو هكذا يُقال. هناك خط واضح فاصل بين الآراء والأفعال، وفقًا للثنائيات التقليدية والفرق بين الجسد والروح.

بطريقة ما، يُنْظَر إلى الآراء كأن وجودها ليس ماديًا فيزيائيًا. وبناء عليه، فهي أوهام، وكأنها تحدث في الزمان والمكان دون وجود فعلي. وما الكلمات إلا هواء مضغوط. لا يمكن إمساكه.

إذا قمتَ بتحريك كرسي في غرفة الطعام، سترى التغيير، حتى لو لم يذكره أحد. هناك شيء ما قد حدث. الأفعال، بعكس الآراء، لها واقع ملموس.

أتساءل إن كنا نفهم الأمور بشكل خاطىء هنا.

جدّتي لأمي لم تكن فيلسوفة، لكنها كانت تقول: «الكلمات ليس لها عظام، لكنها تستطيع أن تكسر العظام.» كانت تدرك ما نعرفه جميعا: إن كلمة واحدة قد تسبب ألمًا وضررًا أشدّ وقعًا من أكثر السكاكين حدّة. بالنسبة لها، الأقوال والأفعال هي الشيء ذاته.

لم تكن جدتي فيلسوفة، ولم تكن تستطيع حتى أن تكتب اسمها، وكان توقيعها عبارة عن شارة صليب. كانت

صغيرة ومعلولة، فقدت كل أسنانها قبل أن تصل إلى سن الأربعين. كانت تمضغ الجذور الصلبة بلثتها، حتى أتمكن أنا من أكلها عندما كان عمري ثلاث سنوات، ولم يكن هناك شيء آخر نقتاته. كان ذلك في عام 1941، ولم يكن الجراد هو من قضى على كل شيء، وإنما جيش عدو.

عاشت جدتي حربين عالميتين، وعدة حروب في البلقان، وحرب أهلية واحدة. وعندما أخذ النازيون والدي، ولم نكن نعرف مكانه، انطلقت جدتي تبحث عنه. كانت مؤونتها عبارة عن قطعٍ من الخبز، وبعض الزيتون، وبصلة واحدة. وجدت أبي في سجن بعيد عن المنزل. ورفض الحراس السماح لها بزيارته، لكنها وقفت عند البوابة وقالت إنها لن تبرح المكان حتى ترى زوج ابنتها. في النهاية استسلموا.

عندما سألها الناس كيف تدبرت أمورها في ظل كل تلك الظروف، لم تجب بالكلمات. كانت تشير إلى السماء. كانت مؤمنة. لم تكن الأيقونات في كنيسة القرية ذات قيمة، لكنها كانت على استعداد للدفاع عنها باستماتة. في المنزل اتخذت ركنًا أقامت فيه كنيسة صغيرة، احتفظت فيه بتاج زفافها وأيقونة مريم العذراء.

إلى أي مدى يمكن أن يكون أحدهم غبيًا ليدّعي حقه في تدنيس أيقوناتها، البصق على تاج زفافها، على إيمانها، أو لتشويه حياتها، ثم يسمي هذه الهمجية حرية ديمقراطية؟ وكأن هذا ليس كافيًا، فيُصر أنه لم يفعل شيئًا.

لم تكن جدتي طويلة، لكنها كانت قامة شامخة بأخلاقياتها، لا يعلو عليها أحد. ليتني أملك عُشر مكانتها.

الآراء هي أفعال، أو هي ما يستفز الأفعال، وليس كل ما ننطق به آراء. علينا أن نكون قادرين على دعم آرائنا بالحجج المنطقية والأخلاقية، آخذين بعين الاعتبار الحقائق المعروفة.

في المنشورات التي كانت توزعها قوات الاحتلال الألماني في أثينا بين عامي 1941 و1945، كان اليونانيون يوصفون بقرود على الأشجار. رأيت هذه المنشورات عندما كنت طفلًا وأيضًا عندما كبرت. وفي الحالتين، كان الغضب يستعر بي واليأس يستولي عليّ. ربما لم أكن لأطلق النار على من أنتج هذه المنشورات، لكنني لم أستطع أن أعتبره أي نوع من الفنون، أو نموذج على حرية تعبير الجستابو. ولم أزل كذلك إلى اليوم.

شعرت بالغثيان عندما غدا مألوفًا في اليونان رسم كاريكاتير لصورة أنجيلا ميركل بشارب هتلر. تلك ليست رسومًا ساخرة. تلك حرب.

لقد نجونا في السويد من الأسوأ منذ مدة طويلة. فنحن علمانيون إلى حد كبير، تركنا شعورنا بالذنب، والعار، والشرف خلفنا. وتركنا للبرابرة أن يهتموا بهذه الأشياء. لا أحد يستطيع أن يزعجنا، لا أحد يستطيع أن يهيننا أو يسيء إلينا.

أجزاء كبيرة من العالم لم تصل إلى ما وصلنا إليه. ويمكننا أن نعتقد أنه حريّ بهم أن يمضوا قُدُمًا ويتركوا الكثير خلفهم، لكن لا يمكننا أن نجبرهم. فالآراء ليست أفعالًا فحسب، إنّما في غالب الأحيان، أسلحة فتاكة. ففي جميع الحروب التي عرفناها، يهاجم الجانبان معتقدات بعضهما ورموزهما. ولا بد أن يكون هناك حد لمستوى السذاجة الذي

سنسمح به لأنفسنا. وإن أُريد للحريات الديمقراطية أن يكون لها معنى، فيجب ألا تؤسس حرياتها على معاييرها هي، وإنّما على معايير أكثر شمولية.

فكلّ ثقافة، وكل حضارة تُقيّم بناء على الحريات التي تحتضنها أو تلك التي تنبذها، بشكل متساوٍ.

وكل ما هو غير ممنوع ليس بالضرورة مسموحًا.

أما المبدأ الأهم لكل من الدولة والفرد، فهو القيمة المتساوية لجميع البشر. وكل معيار يجب أن ينبع من هذا المبدأ.

كتبْتُ مقالة عن هذا الموضوع، ونجَمَ عنها ما هو أشبه بالعاصفة؛ إذ كيف يمكن لمؤلف -مثلي أنا- ألا يدافع عن حرية التعبير؟ تمَّت دعوتي إلى هنا وهناك كي أوضِّح موقفي. لم أُلَبِّ. لقد فقدت الرغبة في ذلك.

كما فقدت الاحترام لهؤلاء المدافعين عن الليبرالية الجديدة. كنت أتوقع سماحةً أكبر تجاه الضعيف، تعاطفًا أكثر. كنت مخطئًا.

لقد اتخذ العالم اتجاهًا جديدًا. كانت الرأسمالية الجديدة تفوز على نطاق واسع. والعولمة، التي هي في الواقع تعني بكل بساطة، أن رأس المال يمكنه أن يفعل ما يشاء، أصبحت النجم الـمُوَجِّه.

تحدثت إلى الشباب، كان معظمهم متعبًا من اهتمام المجتمع الشديد بما يقتنيه المرء من مادّيات، من السعي الدائم وراء الملذات، من عدم وجود أيديولوجية فكرية. كانوا دائمي البحث، دون العثور على ما يبحثون عنه. فاليسار

التقليدي كان قد فقد بريقه المعهود. وحزب البيئة بان أنّه ضلَّ الطريق، أما الاشتراكيون الديمقراطيون فكانوا يقدمون الشيء القديم ذاته. ممّا لم يترك في الساحة سوى الحركات المتطرفة على أقصى اليمين أو الإسلام المسلَّح. شباب وشابات ممن وُلدوا في السويد ونشأوا فيها انضموا إلى داعش.

إنّ من كانوا في جيلي من اليونانيين، غادروا اليونان هربًا من الفقر. أمّا السويديون الشباب فكانوا يغادرون إحدى أغنى دول أوروبا وأكثرها حداثة من أجل... ماذا؟ من المحتمل أنهم لم يعرفوا بلادهم كما يصفها النشيد الوطني: القديمة والحرة. فقد أصبحت السويد بالنسبة لهم سوقًا، كل شيء فيها للبيع، لكن ليس للجميع.

كانوا مخطئين، لكن ذلك ما شعروا به.

ما الذي قاله سارتر؟ إما أن تموت من أجل شيء، أو تموت من أجل لا شيء. لقد فضّل المتطوعون من السويد أن يموتوا من أجل شيء ما.

منذ زمن بعيد، كنت قد كتبت أن المرء يحتاج إلى معنى في الحياة، ليس من أجل أن يعيش، لكن كي يكون قادرًا على الموت. قد يكون مُشرِّفًا أن يموت المرء من أجل ما يؤمن به، لا أن يَقْتُلَ من أجل هذا الإيمان. الحياة تنتهي وتستمر، ليس في الجنّة ولا في الجزر المباركة، ولكن في تبعات أعمالنا.

هذه الخواطر وما شابهها كانت تجول في خلدي في تلك النزهات الطويلة، في انتظار المساء. كانت دائما أوقاتًا مبهجة. كنّا أنا وزوجتي غونيلا، نتجاذب أطراف الحديث على العشاء فنتحدث عن أطفالنا وأحفادنا، وعن العالم بشكل عام، وعمّا إذا كان هناك ما يستحق المشاهدة على التلفاز. كانت الإجابة عادة بلا، إن لم يكن المرء من محبي مسلسلات الجريمة.

كانت غونيلا تستقر على حاسوبها، بينما أخرج إلى الشرفة لأدخنّ غليوني. يجب أن أقلع عن التدخين. لقد تهشَّمت رئتاي، لكنّني واصلْتُ، وإن بشكل أخف من الماضي. كنت قد تزوجت غليوني منذ خمسة وخمسين عامًا، والآن كنت أحاول تبديل حالها من زوجة إلى عشيقة. كان الأمر ناجحًا، نوعًا ما، لكن ليس في المساء بعد العشاء. شققت طريقي إلى الشرفة حيث أعدت صياغة شعر هوراس لنفسي.

«أنت لا تعرف كم شتاء أعطاك زيوس. قد يكون هذا شتاءك الأخير.»

بالطبع لم أستطع سماع موجات البحر التيراني، كما جاء في أبيات هوراس، لكنني كنت أرى أضواء منازل جيراني، وأوراق شجرة الحور الرجراج ترتجف بخفّة، بينما تحاول شجرة

التنوب أن تعلو على جميع الأشجار من حولها، وأنا أتحدث مع نفسي بخفية وهدوء.

«ماذا يهُم إذا متّ الليلة؟ فقد رأيت هذه الأضواء، وهذه الأشجار، لسنوات عديدة. حتى عندما تكون ميتًا، ستتذكرهم. فالحياة ليست حلمًا، إنّها مجرد ظلّ بين الزمن والضوء. الموت لن يسلبك شيئا. لقد تذوقت الملذّات جميعها. لقد رأيت امرأتك تلد أطفالك. لقد رأيت ابنك يصبح رجلًا، وابنتك تصبح امرأة. لقد رأيت شجرة الكرز تكبر، وموجات البحر تصقل الحصى، والثعابين تتشابك. ماذا لدى العالم أن يعطيك أكثر من ذلك؟ اشرب نبيذك، وبارك لحيتك، وأغلق عينيك. حتى لو متّ الليلة، لن يتغيّر شيء، ولن يضيع شيء.»

هذا ما كنت أقوله لنفسي، فأهدأ. كنت أصالح نفسي مع الموت كل مساء على الشرفة، لكنني كنت أنسى ذلك في الصباح التالي. فالحقيقة الوحيدة التي لا جدال فيها، أنني بشر يموت، كانت أبعد من ناظريّ. لقد رأيتها وفهمتها، لكنني كنتُ أنساها، ويحلّ مكانها كل صباح الاجتهاد في سبيل الكرامة ووضع طعام على الطاولة من جديد.

تسألني غونيلا عادة: «بم تفكر؟»، فأجيب بعيدًا عن أي دراماتيكية ومن دون أن أعي ما أقصد: «بأنني سأموت.» الموت موجود باستمرار، وهو دائما غير مفهوم.

في يوم جميل سأفقدها هي أيضًا. لن أستطيع رؤية قدمها تخرج من تحت الأغطية كمخلب شيطان في الصباحات. فهي دائمًا تنام بتلك الشاكلة؛ بقدم واحدة خارج الأغطية.

سأفقد أطفالي وأحفادي. من الأفضل أن أغادر أنا أولًا،

كي لا أعاني المزيد من الخسائر. كانت هناك مقبرة صغيرة في قلبي لكل عزيز رحل. والداي، أخي الأكبر جيورجوس، أصدقاء. في بعض الأحيان كنت غاضبًا منهم.

صديقي دياغوراس، على سبيل المثال. كنا نعرف بعضنا مذ كنا في الثانية عشر من العمر. كنّا جالسيْن في المقهى المفضل لدينا، سونيا، في جادّة ألكسندراس في أثينا، نتحدث في شؤون المسرح الذي كان هو مديره، وعن مشاريعه القادمة، والوحدة التي بدأت تحيط بنا يوما بعد يوم. كان قد أجرى عملية قلب مفتوح مرتين، وبقي على قيد الحياة، وبقي يشرب ويدخّن، تلاقت أعيننا في حنان غامض حزين. ثم قلنا الوداع. ذهب إلى العمل، وأنا عدت إلى ستوكهولم.

جيانيس فيرتيس، العضو الثالث في دائرتنا المغلقة، وممثل بارز، اتصل بي بعد ثلاثة أشهر. رحل دياغوراس، بعد معاناة أليمة. «هل ستحضر جنازته؟» أجبته: «لكن جيانيس، أنا في السويد».

هكذا كان الأمر. كنت في مكان آخر.

كنت دائمًا في مكان آخر خلال الخمسة والخمسين عامًا الماضية.

طلبْتُ من جيانيس أن يضع زهرة على التابوت نيابة عني. لم يفعل ذلك فحسب، بل تأكّد أن يدرج اسمي في الخطاب القصير الذي ألقاه. لم يكن معتادًا على إلقاء الخطب. وسوف أترجم كلمته هنا، إذ إنَّه بموت دياغوراس انتهى أحد أطول وأجمل الفصول في حياتنا.

عرفنا بعضنا منذ السنة الأولى في المدرسة الثانوية.

الأمر الرائع أننا كنّا نعرف بالضبط ما نريد أن نفعله في الحياة. أراد دياغوراس أن يصبح مخرجًا، جيانيس ممثلًا، وأنا كاتبًا. كان الفنُّ إلهنا حينذاك.

قرأت الخطاب في وقت متأخر من إحدى الأمسيات في حانة في أثينا. قدَّمَتْ لي مارينا، زوجة جيانيس، أيقونة جميلة رسمتها، ظهر فيها «الأولاد الثلاثة بجوار الموقد»، ثلاثة شهداء مسيحيين شباب حُرِقوا أحياء. تأثرت كثيرًا. عندما وُضِعَت هذه الرسالة في يدي، شعرت كأن السماء تنحني تظلِّلنا.

صديقي دياغوراس،

لقد أخذت إجازتك في وقت مبكر صباح الأربعاء، وأود أن أعتذر لأنّني نسيتك بالفعل ذلك المساء. ذهبتُ إلى المسرح، وسألت الفتاة في شبّاك التذاكر إن كان لدينا جمهور، لعبتُ دورى كما لو أن شيئًا لم يحدث، وعندما وصلت إلى المنزل نسيتك مرة أخرى، إذ شاهدت مباراة كرة القدم على التلفاز.

أعرف جيِّدًا أنّني سأتذكّرك أقل وأقل خلال السنوات المتبقيّة لي للعيش، تمامًا كأمي وأبي وأخي. لكن عندما أتذكّرك، سأسافر بالزمن إلى الوراء، إلى تلك الأيام التي كنّا فيها في المدرسة. عندما، كنّا ونحن في السابعة عشر من العمر، سويّة مع صديقنا الحبيب وزميل الدراسة ثيودوريس كاليفاتيدس، نتسلَّل من بيوتنا بعد منتصف الليل، وقد غطّ آباؤنا في النوم، ونذهب إلى أحد المقهَيَيْن المفتوحيْن طوال الليل في جادّة

ألكسندراس. نشرب القهوة وندخّن. لكن الأهم: نتحدث فقط عن المسرح. ثم نتسلّل عائدين إلى منازلنا حريصين ألا يُمسِكَ بنا أهالينا. فننام لثلاث أو أربع ساعات، ثم نذهب إلى المدرسة معًا في الصباح، عدا تلك الأيام التي كنتُ أتغيَّب فيها.

اضطررْتُ أن أتوقف لالتقاط أنفاسي. تذكّرت إخلاصنا، شغفنا، تلك الرغبة التي لا يمكن كبتها في سبيل تحقيق شيء ما. أين اختفَتْ؟

احتفظ دياجوراس بكل ذلك حتى وفاته، بالإضافة إلى قدرته على الغضب.

«لهذا السبب، كنّا أنا وثيودوريس، صديقاكَ، نتآمر عليك كي تغضب. ما زلت أرى تلك الصورة في ذهني: أنت تمشي أمامنا، تسبقنا بعشرين مترًا، رافضًا أن يكون لكَ أية علاقة بنا، بينما نحن نضحك خلفك.

«وداعًا يا صديقي!»

تذكرت تلك الصورة أنا أيضًا.

أشعر بالخجل لأنني لم أكن في جنازة دياغوراس، لكنّني متأكد أنه سيغفر لي. لأنه كان قادرًا على المغفرة، وذات يوم سنلحقه، وإن كنّا لن نضحك حينئذ.

كانت هناك أيضًا مسألة أولئك الذين سيخسرونني. الشخص الذي كان سيكابد الألم الأعظم، أمّي، كانت قد رحلت. ستحزن غونيلا فترة. سيكون هناك أيام ستناديني فيها كي تخبرني بأن العشاء جاهز، على الرغم من أنه لن يكون بإمكاني

أن آكل. قد يتذكر الأطفال النكات التي يكرهونها، أو الأوقات التي كنت أغشّ فيها عند لعب الورق (الشدّة)، أو عندما كنّا نتصارع على السرير المزدوج. لكن الزمن يخفف كل حزن، ويحتل الحاضر كل وقتنا، ويصبح الموتى أكثر موتًا مع كل يوم يمر، حتى لا يبقى أي شيء سوى تقاليد متفرقة، كاحتفالٍ بعيد ميلاد، أو رفع علم صغير بكل كتمان على الشرفة، أو أن تقول غونيلا قبل أن يشرع الجميع في شرب القهوة وأكل الكعكة: «كان سيكون في الخامسة والتسعين اليوم.»

وماذا عن الأحفاد؟ لقد تحدث حفيدي بالفعل عن هذه المسألة بإسهاب. كان في الثالثة عشر من العمر. كنا في رحلة إلى جزيرة فورو، وقد أخبرت الأطفال عن أيامي في المدرسة، بما في ذلك عن مدرّس المرحلة الثانوية الذي وصفني بـ «القمامة»، لأنني كنت نحيلًا جدًّا. ضحكوا، ثم قال حفيدي: «جدي، سألقي خطابًا في جنازتك. سيتحدّث الآخرون عن كتبك، لكنني لم أقرأ سطرًا واحدًا كتبتَهُ، باستثناء تلك الأبيات القصيرة في بطاقات هدايا عيد الميلاد. إنّكَ أطرف شخص أعرفه. وهذا ما سأقوله».

هذا ما قاله حفيدي، وفاضت عيناي بالدموع.

الهجرة هي نوع من الانتحار الجزئي. أنتَ لا تموت، لكن الكثير ممّا في داخلك يموت، لا سِيَّما اللغة. لهذا السبب أنا أكثر فخرًا لعدم نسياني لغتي اليونانية من تعلّمي اللغة السويدية. الأخيرة كانت تنبع من الضرورة، والأولى كانت فِعْل محبّة، انتصارًا على اللامبالاة والنسيان.

رميْتُ حجرًا أسود ورائي، كما يقولون في قريتي عندما يقرر أحد ما أن يترك كل شيء. ومع ذلك لم أستطع أن أنسى. اشتقت إلى اليونان واليونانيين أكثر وأكثر. في أحد الدروج، قبعَتْ بضع رسائل من ماريا، حبي العزيز قبل أن أغادر البلد. أخرجْتُها وقرأْتُها ببطء. ليس كي أتذكر حب الشباب، لكن للاستمتاع بلغتها اليونانية، ولأنها أخفت قنبلة موقوتة في عقلي.

«عُدْ، لا يزال لدينا الكثير من النزهات الجميلة كي نمشيها.» قالت لي ذلك عندما لم نعد حبيبَيْن، وإنّما كان بيننا ما هو أكثر قيمة من ذلك. كنّا أفضل الأصدقاء. قرأْتُ رسائلها كي أتذوَّق لغتي. فحتى عندما هجرتني كل أشواقي، كنْتُ لا أزال أفتقد لغتي. بقي هذا الشعور، وأصبح أقوى بمرور الزمن.

كنْتُ أرى ذلك في حياتي اليومية أيضًا. كنْتُ أتَّصل

بصديقي جيورجوس لأسخف الأسباب، لمجرد تبادل بضع كلمات في اليونانية، حتى لو كانت اللغة قد خضعت للتقطير بعد عدة عقود في السويد.

«كيف الحال يا معلّم؟»

كان ميكانيكيًا، وقد اعتنى بسيارتي أيضًا.

«زفت! أَجلس هنا أحْتَضر!»

في الواقع، لم يجد الأطباء أي مرض فيه، لكنه لم يعد يستطيع المشي من دون مساعدة، ولم يعد قادرًا على قيادة السيارة. كان أفضل سائق رأيته في حياتي. بلا شك. يكفيه سنتمترٌ واحدٌ كي يتجاوز بأقصى سرعة. كان مدخل ورشته ضيقًا للغاية. وكان معظمنا قادرًا على إدخال سيّاراتنا، لكنّ الرجوع للخلف كان قصة مختلفة. تركنا هذه المهمّة له، وكان يقوم بها وكأنه يقود على طريق سريع. لكنّه توقف عن القيادة. كان حبّه الأخير، سيارة من طراز ساب بلون أخضر زيتوني، عدّل فيها وحسّن قوّتها إلى 350 حصان، لكنّها قبعت محبوسة في مرآب. وكان يذهب إلى هناك بانتظام لرؤيتها.

لدى جيوروس قلب كبير، لكن روحه لم تتمكن من تقبّل الوضع.

كنت أقول له: «بِعْها وستهنأ براحة البال». وذهبنا معًا إلى المرآب عدة مرات. كانت السيارة مغطاة بقماش مشمَّع كي لا يتكوَّم الغبار عليها. وكانت تلمع.

«لا أحد يريدها. إنها تستهلك الكثير من الوقود.»

في هذه السيارة، كان يسافر إلى ألمانيا، حيث يلعب لعبة القط والفأر مع سيارات المرسيدس والبي إم دبليو

الفارهة، التي كانت تحاول دون جدوى أن تتجاوزه.

وكانت زوجته تتوسل: «خذ الأمور بالراحة يا جيورجوس».

فكان يجيبها، وهو يضغط على دواسة الوقود حتى تطير البيغاسوس الزيتونية الخضراء السويدية الصنع، مبتعدًا عمّن يلاحقونه: «أنتِ لا تعرفين ماذا فعلوا بنا خلال الحرب.»

كل ذلك انتهى الآن. كان يتحدّث عن بيع ورشته، ويقول إنه سئم منها كلِّيًّا، وهو يرفع يديه:

«هاتان لم تعودا تستطيعان.»

لم يكن ذلك دقيقًا تمامًا. صحيح أن الأمور لم تكن كسابق عهدها، عندما كان يستطيع أن يمزق دليل الهاتف إلى النصف بيديْه، لكن مصافحته بقيت تجربة مؤلمة. كنّا قد التقينا في عام 1966، عندما كان يدير ورشته مع جيورجوس آخر. لسبب ما، كان يدعو نفسه بـ «العامل»، وجيورجوس الآخر بـ «صاحب العمل». أمّا أنا فكنْتُ أنادي العامل بـ «المعلِّم»، وصاحب العمل بـ «جيورجوس». لقد أصبحا معروفيْن جدًّا بين اليونانيين في ستوكهولم، وأحببتهما كليهما بجنون.

منذ أن غادرت اليونان، كنت لا شعوريًا أبحث عن أخ كبير. شخص أقوى، أكثر استقرارًا، أكثر شجاعة. لكنني لم أتمكن من العثور على شخص أكثر عقلانية، إنْ جاز لي أن أقول ذلك، لذلك كان من الأفضل أن أقوم أنا بهذا الدور، إذ لن يقوم به غيري.

صارت هذه الورشة، خلال فترة الحكم الديكتاتوري، مركزًا لليونانيين ذوي التّوجه الديمقراطي في ستوكهولم، وأظهر جيورجوس -صاحب العمل- مواهب غير متوقعة. وفي

غضون فترة قصيرة، أصبح من أكثر القادة تأثيرًا في النضال من أجل الديمقراطية في اليونان. وبعد سقوط الدكتاتورية، واصل العمل السياسي في السويد؛ غادر ورشة العمل ولم يعد إليها إطلاقًا.

تُرِك العامل جيورجوس يُدير أعمال الورشة بمفرده، وانتقل للعيش أقرب إلى وسط المدينة. كنّا نذهب إلى هناك عندما لم يكن لدينا ما هو أفضل للقيام به. كان دائمًا يقدم لنا القهوة. كنّا ندردش، ونستمع إلى سائقي سيارات الأجرة يسردون قصصًا مسلية عن مناوباتهم الليلية. «ستوكهولم هي ستوكهولم حتى الساعة الواحدة صباحًا. بعد ذلك تتحوَّل إلى سدوم وعمورة.»

وكان يقصد الورشة أيضًا أناس لا يملكون سيارة، أو ليس لديهم نية في شراء سيارة، أو لا تسمح إمكانياتهم بشراء سيارة. كان هناك رجل من الشرق، على سبيل المثال، تركيّ مسنّ بعيون كبيرة ولطيفة وصوت ناعم وسعال مستمر، قد يكون سبب تقاعده مبكرًا. كان يعيش وحيدًا، يقرأ قليلًا، ولا يتكلّم كثيرًا . لكن كان من الواضح أنه يستمتع بقضاء الوقت مع جيورجوس، الذي أطلق عليه بمرور الوقت لقب «صانع القهوة الأول».

ذكّرني التركيّ بجدتي لأمي. كان يجلس بالضبط مثلها، بظهر مستقيم ويَدَيْن مشبوكتيْن، نظراته مشرقة وثابتة. فينتاب المرء شعور بأن لا شيء يزعزع تماسك أمثال هؤلاء، وهو ما أسميه «قوة الضعفاء»؛ أن يدرك المرء أنّه يستطيع تحمل أي شيء، وأنّه مستعد لكل ما يُمكن أن يحدث في أية لحظة.

هؤلاء الناس يعرفون أنهم لا يستطيعون أن يحكموا العالم، لكنّهم يستطيعون أن يتحكموا بخوفهم.

ثمّ كان لدينا اليهودي. لم يكن أحد يعرف إن كان فعلًا يهوديًّا، لكنّنا كنّا نسميه كذلك لأنه رجل متعلّم تعليما عاليا، على خلافنا. أُشيع عنه أنه كان قاضيًا، وكان يُسْتَدْعى من حين لآخر لحل النزاعات العملية أو الإيديولوجية البسيطة. هو أيضًا كان يعيش وحده، لكن كان لديه «رفاقه القتلى»، كما قال.

كانت هناك أيضا السيدات العازبات المسنّات، اللواتي كنَّ يُحضِرن سياراتهنَّ المعطلّة إلى ورشة جيورجوس، وذلك لأنّ أسعاره كانت منخفضة، ولأنّه كان يرفض أحيانًا أن يتقاضى أي أجر على الإطلاق إذا اشتبه أن الزبون يعاني من ضائقة مالية. التقطت إحدى تلك السيدات مرّة صورة لي ولجيورجوس معًا، لأننا بدونا «جميليْن جدًّا»، برؤوسنا الرمادية. فقل لي بحقّ السّماء، كيف يمكنه أن يدعها تدفع بعد ذلك؟

لم يكن أحد منا يريد جيورجوس أن يتقاعد، لكنه وجد مشتريًا يوغسلافيًّا، فباع الورشة، ووضعت المال في البنك، وذهب إلى منزله.

قال: «سأغسل يديَّ».

بعد أسبوع ظهرت الأعراض الأولى. الألم الغريب هنا وهناك. بعض الوجع أسوأ من غيره، الدوخة، التعب، ثقل اللسان، صعوبة في الكلام. وذات يوم، تناولنا الغداء معًا. لم يسبق لي أن رأيته في قميص وسترة، وبالكاد تعرفت إليه من دون ملابس العمل. مشى نحوي يبتسم، لكن خطاه كانت حذرة، وكأنها قلقة.

أصر أن يدفع ثمن الغداء.

قال: «كُلْ، لعلّك تزيد بضع غرامات، أيها الأديب البائس.»

«ماذا يقول الأطباء، أيُّها المعلِّم؟»

«إنهم لا يقولون شيئًا. يتحدثون عن الطقس. يُخبروننني أنني استنشقت الكثير من أبخرة العوادم، وأنني سأتحسّن قريبًا».

لم يتحسّن.

الاستنتاج كان أنّنا نكبر، وأفضل ما يمكننا القيام به هو أن نكبر ونحن نعمل. كان يجب أن أتعلَّم درسي، لكنني لم أفعل. وبدل أن أستمر في الكتابة بأي ثمن، استسلمت.

عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري، سألت نفسي كيف يجب أن أعيش حياتي، وكان الجواب: غادِرْ.

وهذا بالضبط ما فعلته. الآن، وقد تجاوزت الخامسة والسبعين، واجهني السؤال ذاته: كيف أعيش السنوات المتبقية من حياتي؟ تتكرّر الإجابة مرارًا: ارْجَعْ.

مكتبة
t.me/t_pdf

مرّت الأيام، وجاء شهر حزيران، وأُفْرِغت المدينة ببطء من سُكّانها. حان وقت ذهابنا إلى منزلنا الصيفي في جزيرة غوتلاند. كنا هناك كل صيف منذ عام 1971. وبعبارة أخرى، كان في جعبتي الكثير إن رغبتُ في مقارنة الأحوال والأزمنة.

مقارنة ماذا؟ السرعة المدوِّخة التي تكوَّنت فيها المجتمعات الاستهلاكية. كان لدينا سيارة فورد طونُس مستخدمة، إن كان أحد يتذكر هذا الطراز. في السنوات الأولى، كنّا نُحمِّلها بكل ما نحتاجه، وكنّا نحتاج فعليًّا كل شيء، من ملاءات الأسرّة إلى معدات المطبخ. نقلنا مستلزمات منزل كامل، وقمنا بذلك بشكل جيد. ثم رُزِقنا بابننا، وتبعته ابنتنا بعد ثلاث سنوات. ثم أصرّت غونيلا أن تأخذ أصص نباتاتها المفضلة معها. ولم يكن هناك بأس في ذلك. مع مرور السنين، اشتريْنا المزيد من الأشياء لمنزلنا الصيفي. وصار لدينا تقريبا منزل مُجهزٌ بالكامل هناك، واشتريْنا سيارة أكبر.

تلك أيضًا كانت مكتظة، وجلس طفلانا وأصص النباتات في أحضانهما. وبعد بضع سنوات اشتريْنا سيارة إضافيّة، وصارت السيارتان معبّأتيْن حدَّ الانفجار.

كبر أولادنا ولم يعودا يرافقاننا إلى غوتلاند. وصرنا نسافر

أنا وغونيلا إلى هناك في سيارات منفصلة، مُحمَّلة، بنفس القدر، بالأشياء من بيت لآخر.

كان لدينا منزلان مجهَّزان بالكامل، واستمرّت رحلاتنا المُحَمَّلة بالقلق. في البداية، لم يكن لدينا علبة جعّة معنا، لكن مع مرور الوقت، أخذنا النبيذ الذي لم نتمكن من العثور عليه في غوتلاند، والويسكي، والشنابس، لتلك العشاءات في ليالي الصيف، والمزيد من أصص النباتات، والأطعمة التي قد نفتقدها، وبذلات وفساتين لمناسبات اجتماعية متنوِّعة كانت تتزايد باستمرار. سارعنا إلى حفلات التعميد، والأعراس، والجنازات. دعَوْنا الناس إلى العشاء عندنا، وركضنا لتناول العشاء عند غيرنا. ذلك المكان المهجور، لم يعد مهجورًا.

لم نحظَ بعطلة، لقد قمنا ببساطة بتبديل الأماكن التي عشنا فيها، واستبدلنا حياة الصيف بحياة الشتاء. كان لدينا ضيوف على الدوام. فزوجتي تحب أن تكون بين الناس. أنا أفضل أن أبقى وحيدا. كما أنني أتعب بسرعة، أراقب الساعة حتى في حضرة الأصدقاء المقرّبين.

لذلك السبب بنينا كوخًا صغيرًا أستخدمه كمكتب لي. في يوم من الأيام، وجدت على الشاطىء قطعة من الخشب صقلها البحر حتى غدت تشبه المرمر. فكتبت غونيلا عليها منزل ثيو. علَّقْتُها فوق الباب الأزرق الباهت الجميل، ثم دخلْتُ وجلست إلى حاسوبي.

جلست هناك ثلاث ساعات. لم تُكتب فيها كلمة واحدة.

شعرت وكأنَّ «نفسي» الحقيقية كانت معلّقة فوق الباب، ولم أكن سوى صورة شاحبة لها.

أنزلت اللافتة وعدت إلى الداخل مع «ذاتي» الحقيقية تحت ذراعي. وبعد خمس عشرة دقيقة، كنت قد كتبت صفحة.

هكذا انكشفت الحقيقة البسيطة لي تلك المرّة. عندما يبدأ المرء في حراسة كتاباته، عندما يبدأ أن يكون هو المؤلف، عندما يُعلِّق نفسه على الحائط، ينتهي. تعمل الكتابة بنفس الطريقة التي يعمل بها نبع ماء. يمكنك أن تصنع زينة رائعة حوله، أن تبني نافورة جميلة، أن تزرع أشجار جميلة. لكن أيًّا من هذه لن تجعل الماء يتدفق. إنما هو الضغط المتفجّر من أعماق ظلام الأرض الذي سيجعله ينبجس.

هذا لا يعني أنك كأديب وكاتب عليكَ أن تطوي ذراعيك وتنتظر البيض يغلي ويجهز. فعلى المرء أن يعمل طوال الوقت، ويتعلّم أن يقدِّر الكتّاب الآخرين، وهذه موهبة لا يمتلكها معظمنا، وأن يدرّب نفسه على كبح نفسه من الظهور، وألا يطلّ من كل نافذة تلوح له.

بهذه الطريقة كانت زياراتنا إلى الجزيرة تشكل معسكرًا تدريبيًّا مثاليًّا بالنسبة لي. كنتُ أحمل مفكرتي وأتجوَّل نزولًا إلى شاطئي المهجور. كل شيء حولي كان يجري كالمعتاد. قد أخيف سحلية صغيرة فتبتعد، وكان هذا كل شيء.

هناك، حيث لم يكن يشهد عليَّ سوى البحر والسماء، حاولت أن أكتب أفضل ما أستطيع. ومن وقت لآخر، سار الأمر جيدًّا حقًّا.

لكن ذلك لم يستمر. لقد جفَّ نبعي. كان بإمكاني أن أبني ضريحًا حوله. لكنّ ذلك لم يكن ليساعد في شيء. وبالقرب من شاطئي، بُنِيَت منازل صغيرة فاخرة للشباب والأثرياء، وكان

هناك مخطّطات لمطاعم ومسارح ومعارض، واللّه أعلم ماذا أيضًا. تزاحمت في المياه اليخوت الشراعية الكبيرة، التي تصدح بضحكات ركابها، مع القوارب ذات المحركات الصاخبة، التي لا يُسمع منها أي ضحكة.

لقد غيّر المجتمع بوصلته، وتوجّه نحو الاستهلاك والتسلية. وكان هذا التغيير أكثر وضوحًا في فوروسُند، أقرب منطقة مأهولة إلينا، إذ كانت تضم مجتمعًا متكاملًا عندما وصلنا الجزيرة أول مرة في عام 1971.

كانت هناك مدرسة، ومكتبة عامّة، وعيادة، وطبيب، وثلاثة بنوك، وثلاث بقالات، وخدمة مواصلات عامة منتظمة بالحافلة، بالإضافة إلى حافلة مدرسية، وثلاثة مطاعم، وفندق قديم جميل عقد فيه نادي الروتاري المحلّي اجتماعاته. كان هناك حتى متجر كتب.

كان اقتصاد فوروسُند يرتكز على وجود كتيبة المدفعية الساحلية المتمركزة فيها، جنبًا إلى جنب مع معسكرات تدريب سلاح المدفعية «بونغنيز»، والتي كانت تجاور منزلنا تماما. لم أكن شديد الإعجاب بالانضباط العسكري. فقد كان هناك أنواع شتّى من الأنشطة تجري حول مدخل القاعدة، وكان الجنود يقودون مركباتهم بأقصى سرعة على المسار الترابي المؤدي إلى القرية.

بالإجمال، كان هناك ما يقارب ستمائة عسكريّ، وخمسون موظفًا في الخدمة المدنيّة، بالإضافة إلى التّجار، والميكانيكيين الذين يعيشون في فوروسُند.

في تلك الأيام، كانت جزيرتا غوتلاند وفورو منطقتيْن

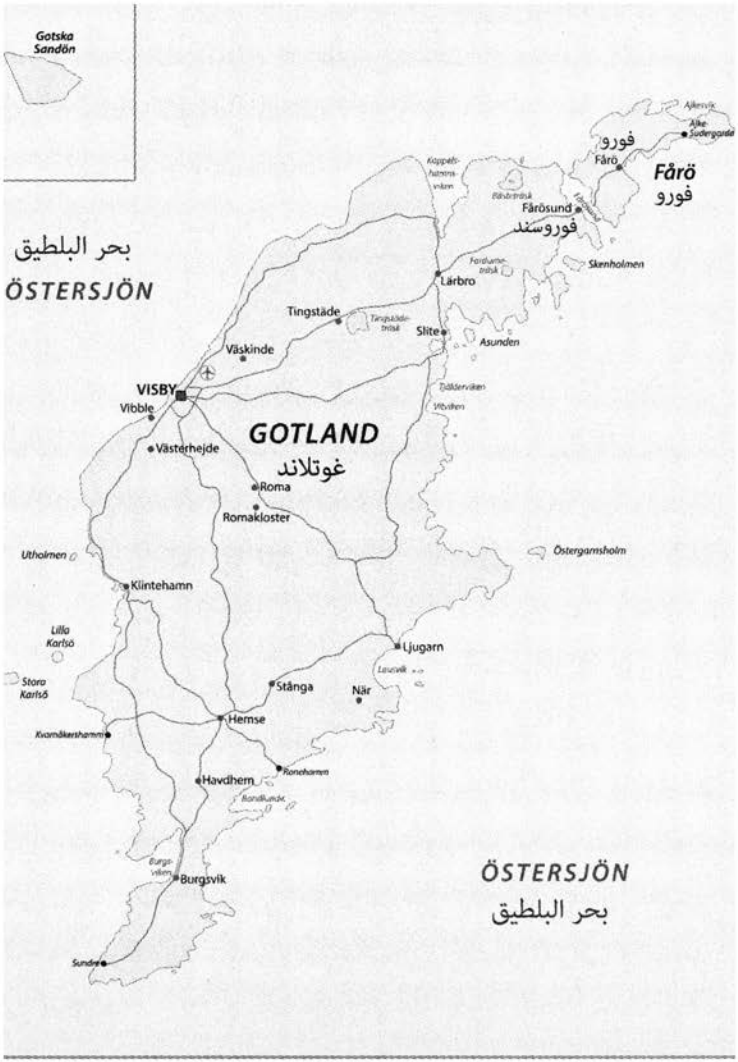

خارطة جزيرة غوتلاند، السويد

عسكريتيْن مهمتيْن. في كل مكان، ظهرت لافتات حظر الدخول والتصوير وغير ذلك. كما تمّ حظر دخول الأجانب كليًّا من مناطق بعينها، ومن شراء الأراضي أيضًا.

اشترينا المنزل باسم غونيلا، وتوَّجب عليّ أن أحصل على تصريح للتواجد هناك. كان يمكنني الحصول على التصريح من قائد الكتيبة، الذي كان يسكن أجمل بيت في القرية. ذهبت أنا وغونيلا لرؤيته، وتم تسوية الأمر في محادثة لطيفة استغرقت بضع دقائق. أعتقد أنه قرر أن يمنحني ثقته عندما سمع أنني أدَّيْتُ خدمتي العسكرية في اليونان، وأنّني لم أهجر بلادي، وأدَّيْتُ واجبي في خدمتها لمدة ثمانية وعشرين شهرًا.

اكتسبت الحياة الاجتماعية في فوروسُند لونًا كاكيًّا. كان هناك تسلسل هرميّ احترمه الجميع. لكنّ التهديد الوحيد كان مصدره جماعة «08»، كما أسماهم السّكان المحلّيّون، أي السّياح القادمين من العاصمة، إشارةً إلى رمز الهاتف الخاص بمدينة ستوكهولم.

باتت غوتلاند وِجهة دارِجة للسائحين، على الرغم أنّ فورو كانت المغناطيس الحقيقي. وازداد عدد الغرباء الذين يشترون أو يبنون المنازل الصيفية فيها. وعجَّت العبّارات من مرفأ نينازهامن إلى فيسبي بالمشاهير والشّخصيّات البارزة. ذات مرّة، رأيت أولوف بالمي، رئيس وزراء السويد الأسبق، يجلس متربعًا مع أبنائه، يتناولون الشطائر التي أعدّتها زوجته ليزبيت. كان حينئذ رئيسًا للوزراء، لكن لم يكن هناك حراس شخصيّون، ولم تكن هناك سيارة تنتظره على الرصيف. كان ببساطة أبًا سويديًا في عطلة مع عائلته. كانت السويد لا تزال

بريئة. لن تبقى هكذا.

أيقظت حرب فيتنام أبناء جيلي. امتدّت المظاهرات في المدن إلى المناطق الريفية. وتأسست حركة سلام في الجزيرة، وكانت إحدى مطالبها نزع السلاح عن الجزيرة، وترحيل جميع الوحدات العسكرية إلى مكان آخر. نظّمنا مسيرات ونحن نحمل أطفالنا على ظهورنا، أعددنا الملصقات واللافتات. كان المناخ مقبولًا والجو لطيفًا. وكانت إجازة من النوع الثوريّ، إن جاز التعبير.

في إحدى الأمسيات، وبعد مسيرة قصيرة أخرى، اجتمعنا في مطعم افتتح حديثًا، وجاء أولوف بالمي ليشارك ببضع كلمات. كان هذا السياسي اللامع قد قرأ بالفعل مجموعتي الشعرية الأولى، واقتبس منها بيْتًا، ليس لتمجيده، لكن للتعبير عن معارضته.

عندما أقرأ ذلك البيْت اليوم، أشعر بالحرج، لكن في ذلك الوقت كنت حقًا أؤمن بما كتبْت. أحيانًا، أفكّر أن هدف مرحلة الشيخوخة هو أن تحرجك من سنوات الشباب. في كل الأحول، لقد أسعدني بالمي في ذلك المساء. بلادي الجديدة كانت مستعدة لتسمع ما أقول.

انتهت الحرب في فيتنام. تحوّل اليسار فجأة إلى مُصارع ثيران لكن من دون ثور. وغدت الطريق من مظاهرات الشارع إلى غرفة المعيشة سالكة سهلة بشكل مدهش. حبسنا أنفسنا في البيوت، ورعينا شؤون المنزل والعائلة، وتعلّمنا أن نطهو أطباقًا معقدة وكيف نختار النبيذ، ونتطلّق كي نحصل على بداية جديدة. في الماضي، لم نكن نطلب الطلاق حتى لو

وُجد سبب وجيه لذلك؛ الآن صرنا نتطلّق لأي سبب كان. كنّا مواطنين، وغدونا أفرادًا.

الانفراج في العلاقات الدّوليّة والزيادة المطَّرِدة في المشاريع الاجتماعية اضطرّا الحكومة أن تخفِّض النَّفقات، بما في ذلك ميزانية الدّفاع. وكان تفكيك الكتيبة العسكريّة في فوروسُند يندرج تحت ذلك. فبدأ فصل جديد من الكوميديا التي نعيشها. عدنا إلى الشوارع، لكن هذه المرة، كي نطالب بإبقاء الكتيبة. فكل شمال جزيرة غوتلاند سوف ينهار من دونها. سيُغلق عدد كبير من المحلات التجارية أبوابه، وكذلك البنوك والمدرسة. وسوف نخسر الطبيب المتواجد هناك، وستنخفض الإيجارات وتهبط معها قيمة ممتلكاتنا بشكل كبير.

وزير الدفاع آنذاك لم يتلاعب بالكلمات: «لم نستمع إليكم في المرة السابقة. ولن نستمع إليكم هذه المرة أيضًا.» هذا ما قاله، وهذا ما حصل.

تم تفكيك الكتيبة، وتحقَّق كل ما كنّا نخشاه؛ ارتفعت البطالة. لكن الناس لم يجلسوا مكتوفي الأيدي يَرْثون مصيرهم. نجت فوروسُند: أُنْشِئَت أعمال تجارية صغيرة جديدة؛ تحوَّلت الثكنات إلى فنادق ومطاعم وسكن للشباب؛ وافتتحت مدرسة ثانوية؛ ازدادت السياحة، فانخفضت البطالة، وصار من الصعب الحصول على حِرَفِيين، فَجِيءَ بالناس من كل حدب من البلدان المجاورة أو حتى أبعد. كما تمَّ الاستيلاء على القاعدة الجوِّيَّة العسكرية، وحلّت محلّها شركة طيران توفّر رحلات مباشرة من ستوكهولم وإليها، للشّباب والأثرياء. رجال ونساء في مقتبل منتصف العمر تعلّموا الصيد أو قيادة الطائرات الصغيرة. تذمَّرَ

السكّان في هذا المجتمع، الذي كان يُعرف سابقًا بالبروتستانتي الزاهد، إذ تعوّدوا أن يحملوا تعاليم لوثر كما يحملون حقائب الظّهر المتواضعة، مما جعلهم لا يستطيعون أن يعيشوا أسلوب حياة آخر، سوى بالطبع، عندما يزورون إسبانيا أو اليونان سيّاحًا.

وكانوا يقولون لي: «أنتَ تعرف كيف تعيش». كنت لا أزال اليوناني الوحيد في القرية.

نسي النّاس أمر لوثر الآن. قد يكون الجيل الأصغر ربما سمع عنه. لكن لم يحملوه بالتأكيد على ظهورهم. تغيّر المجتمع من المسؤولية الجماعيَّة لأفراده إلى الهروب الجماعي من تلك المسؤولية. كان من النادر جدًّا أن تعترف شخصية عامة بأن خطأ ما قد ارتُكب، أو أن هناك من هو مسؤول عن هذا الخطأ. هناك تعبير يوناني للدلالة على اللامبالاة: «إنها تمطر في مكان آخر». لكنه لم يكن مناسبًا هنا؛ لأنها تمطر في كل مكان في السويد، إلا أن المقصد هو نفسه. فالمسؤولية تقع دائما في مكان آخر. كما أنَّ الحماقات والأخطاء السّابقة لديها قدرة أسطورية على البقاء والاستمرار. ولم يكن من الممكن تصحيحها. لقد دمرَّت لامركزية نظام التّعليم مدارسنا الابتدائية، الجميع يعرف ذلك. لكنّ الوضع لم يتغيّر، وعلى الأغلب لن يتغيّر. أُنْشِئت بعض المدارس الخاصة باستعدادات متفاوتة وأهداف مختلفة. النتيجة: أطفال الأسر الأقل ثراءً يرتادون مدارس أسوأ وأسوأ. كانت اللامركزية جريمة ضد العقد الديموقراطي، وحتى الآن لم يعتذر أحد. ولن يعتذر أحد.

طبعت هذه التغييرات بصماتها، وإن كان ذلك على نطاق أضيق في فوروسُند. بعض المبادرات لم تنجح. أصبحت

البنوك الثلاثة واحدًا، واختفت حافلة المدرسة، وصارت متاجر البقالة الثلاثة واحدة أيضًا، واندثرت مكتبة بيع الكتب إلى الأبد.

تغيّرات أخرى كانت جليّة أيضًا، على سبيل المثال، العلاقة بين السّكّان المحليّين والسّيّاح. في السبعينات كان هناك بعض الدفء والودّ، ما برِحا أن تَحوَّلا تدريجيًا إلى الرّيبة المتبادلة. كان يُنظر إلى السّيّاح وكأنّهم طُفيليات، يسعى السّكّان المحلّيّون إلى أموالهم. وفي المقابل، لم يرغب السّيّاح في التّعامل مع السّكّان المحليّين، لكنهم كانوا بحاجة إلى خدماتهم.

كانت العملية تحوي الكثير من المفارقة. كلمات مثل «ضمير»، «واجب»، «مسؤولية»، كلها أصابها العطب أو السّخرية، أو ببساطة اختفت. اكتشفت السويد حياة اللامبالاة. في وطني الأم، اليونان، كان النّاس يجاهدون كي يعيشوا كما في بلدي الثاني، السويد. بينما هنا في السويد، أراد الناس أن يعيشوا كما في اليونان. هناك، حلمَ النّاس بالنموذج السويدي، بينما في السويد حلموا بغياب أي نموذج، كما هو الحال في اليونان.

كان لدينا ذات المشكلة في المنزل. حاولت غونيلا أن تعلّمني نظريتها في التنظيم، والتي أدركت تدريجيًّا أنها تقع في صُلب النموذج السويدي.

«قبل أن تتمكن من فعل شيء ما، يجب أن تفعل شيئا

آخر أولًا.»

هكذا كانت تدير حياتنا اليومية. دعوني أعطيكم بعض الأمثلة. قبل أن تفتح نافذة، عليك أن تزيل جميع أصص النباتات من حافة النافذة. قبل أن تتمكن من تحميل السيارة، عليك أن تغسلها. قبل أن ترتّب السرير، عليك تهوية الملاءات. وهكذا. ولم تكن تنس أي شيء.

أنا، من ناحية أخرى، كنتُ كثير النسيان، حتى وإن لم أكن أنسى أشياء أساسية؛ حذائي، ربما، أو الرواية التي كنتُ أقرأها. نصحتني غونيلا بكتابة قوائم. لذا كتبْتُ قوائم، لكنني كنتُ أنسى أين وضعتُها.

بَيْد أنَّ نسياني وصل إلى مستوى جديد تمامًا عندما اتخذت قرار التّنحّي. كان عقلي يشبه ساعة توقفت في الوقت الخطأ.

اتضح أنه بالإضافة إلى عدة أغراض من الملابس والأدوية، فقد نسيت ملاحظاتي المدونَّة وبعض المواد المتعلقة بمشروع سابق، بالإضافة إلى قواميسي باللغتين السويدية واليونانية التي رافقتني على مرّ السّنين. من دونها كنتُ بلا حول ولا قوة.

لم تكن ردة فعلي عادية. لم أحاول إيجاد طريقة للحصول على الأشياء التي تنقصني. على العكس تماما. لقد تقبّلت ذلك، كدليل آخر على يجب ألّا أكتب. نسياني لم يكن مصادفة، لكن دليلًا على أنني كنت أُبْعِد نفسي عن نفسي. إنْ لم أتذكر شيئًا، فذلك لأنه لم يكن يستحق التّذكّر. إنْ لم أكتب شيئًا، فذلك لأنه لم يكن يستحق الكتابة.

قلْتُ لغونيلا: «هذه بداية لطيفة للصّيف».

لم تكن تنسى شيئًا، لكنَّ ركبتها اليسرى بدأت تُسبِّب لها المشاكل.

أضفْتُ: «كل شيء يسير في انحدار.» لم تُجِبْ، إنّما خرَجَتْ تتفقَّد الدمار. لقد أكلت الأرانب كل شيء، إلّا ورد الأصفهان الجميل الخاص بي، نجا.

نحن بحاجة أن نقوّي شوكتنا إن أردنا البقاء على قيد الحياة، هكذا حدَّثتُ نفسي. لم أزرع أشواكًا، لكن بعد بضعة أيام اكتشفت وصمة في الجانب الأيسر من رأسي، على صدغي. تحسَّسْتُها، كنْتُ أشعرُ بها، لكن لم يكن هناك شيء لأراه.

اسْتُدْعِيَتْ غونيلا، وعلى الفور كان التَّشخيص جاهزًا.

قالت: «إنها وصمة النسيان.» ثم أخذت توضِّح أنّ الأمر شائع لدى الرجال في عمري، بينما تنجو النساء منها.

لم يكن هذا كل شيء. فسرعان ما نما شيء ما على كفِّ يدي اليمنى. لم يؤلمني. لكنّه أزعجني إذ كنت أشعر به طوال الوقت. تكلَّمْتُ مع طبيبة أعرفها، امرأة أصغر سنًّا. طمأنتني أن لا شيء يدعو للقلق، فالأمر شائع جدًا لدى الرجال في عمري. ولا داعي لأية جراحة، ولن يسوء الأمر.

هدأْتُ. جلست إلى الحاسوب لمعرفة إن كان سيحدث أي شيء. لكن لم يكن هناك شيء. لم تظهر كلمة واحدة. واصلت خدش وصمة النِّسيان، وفكّرتُ أنَّها تكبر وتكبر.

لحسن الحظ، التقطت كتاب ستيفان زفايغ عالم الأمس. كان كتابه الأخير. لقد أنهى حياته بنفسه في البرازيل في فبراير 1942، مع زوجته التي تصغره كثيرًا في العمر. لماذا؟ قد يتساءل المرء. عالم أَمْسِهِ ذهب ولن يعود أبدًا. لقد دمرَّه

هتلر للأبد.

عالم الأمس كتاب رائع، كُتِبَ في نثر موسيقي مُسَجّع برفق. ببساطة، كان لا يُقاوَم.

أراحني كثيرًا. عاش العجوز زفايغ حياة منعزلة تغشاها الوِحدة في مدينة بتروبوليس في البرازيل. لم يستطع أن يعود إلى أوروبا خاصّته، ومع ذلك وجد القوة كي يكتب أفضل كتاب له.

مِمَّ يجب أن أشكو؟ فحالتي ليست دراميّة بأي شكل. يمكنني زيارة وطني الأم في أي وقت. لديّ أولاد وأحفاد. كيف يمكنك أن تقتل نفسك وتترك هذا الإرث وراءك؟

أول الزّوّار لنا في منزلنا الصيفي كانت ابنتي وزوجها. زاد من سرورنا، لأننا لم نكن نراهما كثيرًا. كانا يعيشان في التلال البديعة المحيطة ببحيرة بورينغيه في جنوب السويد. لم أرَ في حياتي بقعة خلّابّة بهذا السحر. كانت تتألق في الشمس وكأنها إحدى منحوتات زورن (من أبرز فنّاني السويد) المثيرة، تستجمُّ بفخذيْن مُكوَّرَيْن، يتصبّب العرق منهما. لو ألقيْتَ غُصيْنًا جافًّا في تلك الأرض، ستنبت شجرة بعد أسبوع.

بقيا معنا حوالي عشرة أيام، وكان في ذلك سعادة كبيرة. ثم جاء ابننا مع أطفاله. امتلأ المنزل، على الرغم من اختفاء الأطفال طوال النّهار لقضاء الوقت مع أصدقاء لهم من الصيف السابق.

قدّم لنا ابننا شجرة كُمَّثْرى هدية، وزرعها بنفسه لتحلَّ مكان شجرة كُمَّثْرى قديمة، تقدّم بها العمر ومرضت. وكانت قبلها أجمل شجرة في الحديقة؛ أكرمتنا بفاكهة كثيرة، وظلّلتنا

بأوراقها المورفة المترّاصة. يجب أن أقول إنّني أحب الكُمَّثْرى كثيرًا، لدرجة أنني أحبّذ أن أشير إلى أنّ فاكهة شجرة المعرفة هي الكُمَّثْرى وليست التّفّاحة. في أواخر الصيف، عندما ينضج الثمر، ويتلألأ الندى عليها كشموس صغيرة، كنت أقطف واحدة كل صباح وأتناول قضمة كبيرة. كان العصير يتدفق على ذقني، وكأنّه طعم العالم، طعم الحياة.

حفر لها ابني، وهو عاري الصدر، بينما كنْتُ أستلقي، غارقًا مفْتقِدًا أمي وأبي اللذيْن زارا هذه الحديقة في جزيرة غوتلاند؛ والدتي بشبشبها الصغير القادم من حكاية خياليّة، ووالدي ببيجامته الذهبيّة. حاول أبي أن يُعلّم الأطفال اليونانية من دون نجاح يُذْكَر. والدتي لم تهتم. جسدُها كلّه كان لغةً بأسماء وأفعال كثيرة.

غادر الأطفال، وغدا المنزل خاليًا، لكن ليس أيامنا. انشغلنا بالارتباطات الاجتماعية. أكلنا وشربنا في أماكن مختلفة، هتفنا وغنَّيْنا مرة تلو المرّة.

لقد كتبْتُ هذا من قبل، لكن لم يقرأ الجميع كتبي لسوء الحظ، لذا سأكتبها مرة أخرى: يغني اليونانيون عندما يشربون، يغني السويديون حتى يتمكنوا أن يشربوا. على مر السنين، ابتدعت عادة ممتعة، وهي أن أجمع كلمات مرادفة لشراب السنابس الاسكندنافي، (وكلمتَيَّ المفضّلتيْن هما «جماري» و«توتنغ»).

لا أدري إن كان هناك أية لغة أخرى في العالم تملك هذا الخيال الجامح في هذا المجال.

كانت الحياة مريحة. لكنّ الفراغ بداخلي كبُر. بدت الأيام طويلة لا تنتهي من دون الكتابة. ومع ذلك، لم أستطع أن أكتب. قمت بنزهات طويلة وحدي، وجدت طريقي إلى أماكن أحببتها كالمقبرة الإنجليزية في فورو، والتي تعود إلى أيام حرب القرم في عام 1854. شواهد القبور غير مقروءة، فقد طمست الرّياح والأمطار ما كُتِبَ عليها. دُفِنَ فيها عدد من البحّارة الإنجليز الذين أُزْهِقَتْ أرواحهم بوباء الكوليرا، في قطعة أرض أُحيطت بسلاسل ثقيلة كبيرة، كما لو كان هناك خطر من أن تطير بعيدًا مع الرّياح الشّرقية اللاذعة القادمة من إستونيا. كنت أيضًا أزور القلعة التي تنتمي لذات الحقبة وذات الحرب، ما برِحَت هناك، محاطة بحواجز دفاعيّة صدئة من العصور الوسطى لصدّ الفرسان المحاربين.

في أوقات أخرى، قدتُ السيارة، وتوجهت إلى عمق الجزيرة لأرى حلقات الحجارة المرصّفة والقبور القديمة. هذه الثقوب في أبواب التاريخ تعمل عمل الأدوية القوّية في نفسي. أصل هناك برأس وأغادر بآخر.

ذهبت إلى شاطئي السّرّي، حيث كنت غالبًا وحدي تمامًا، لكنّ عقلي لم يكن يفتح كعهده السابق. كنتُ أنظر إلى

المشاهد الطبيعية، لكنّني لم أكن أراها.

بعد الظّهيرة، كنتُ أجلس في مقهى مافين الذي افتُتِح حديثًا، ويقدّم أفضل قهوة اسبريسو في العالم، كان قلبي مُثْقَلًا بحزن لم أفهم كنهه. ما الذي حال بيني وبين الكلمات؟ لقد كنّا أصدقاء لفترة طويلة. لم نعد كذلك.

سألني الأصدقاء والمعارف لماذا لم أشترِ لنفسي مكانًا صغيرًا في اليونان. كانت إجاباتي تختلف؛ كنتُ أقول مثلًا إنّني لم أشأ أن أصبح سائحًا في بلدي، إنّني لم أرغب في التّوقف عن الحنين إلى الوطن، إنّني لم أرغب أن أضع اليونان في أصيص كزهرة. كانت كلّها إجابات صادقة، لكنّ أهمها: إنني وجدت اليونان، خاصّتي، في جزيرة غوتلاند.

كان هناك الضوء المزدوج ذاته المنبعث من البحر والسماء، الظلام ذاته، وأشجار الصنوبر ذاتها التي تلاعبها الرّيح، الحجر الرملي ذاته والحجر الجيري ذاته. وكان للجزيرة أيضًا تاريخ ما فتئت تبصره العين. إذ كانت فوروسُند قاعدة بحريّة للإنجليز والفرنسيين خلال حرب القرم، ما زالت مباني الثّكنات فيها، وقد تحوّلت إلى مطاعم أو بيوت للطلّاب.

في بعض الأحيان، تناولنا العشاء هناك، والبحر أمامنا. بكلمات قصيرة، أحببت فوروسُند حبًّا جمًّا.

مرّت الأيام، وحاولت التّمسك ببرنامجي الروتينيّ، إذ كان الفراغ يتعاظم في داخلي بشكل خطير. قرأت الصّحيفة بعين متفحِّصة مدقِّقة. وكان هناك بعض التغييرات في الروتين، إذ أدرْتُ الراديو في الصباح، وهو أمر لم يكن ليخطر بالبال من قبل. حاولت أيضًا أن أُغيِّر في إفطاري، لكن ذلك كان أكثر

صعوبة مما اعتقدت. بدا كل يوم وكأنه لا ينتهي. باشرْتُ بأنشطة جديدة، فذهبت إلى النّادي الرياضيّ في فوروسُند، رفعْتُ الحديد، جرَّبْتُ آلة التَّجديف، تأوَّهْتُ، وتصرَّفْتُ بما لا يليق بي. كنّا عددًا من السيّدات والرجال كبار السن.

إحدى السيدات اللّطيفات، كانَتْ قد قرأت بعض كتبي من قبل، بما في ذلك رواية الجريمة التي كتبْتُها. وفي أحد الأيام، فتحَتْ بابًا لم أرَهُ من قبل، وقالت: «هذا مكان جيد لإخفاء جثة!»

لكنها عرفت من أكون. وهذا أمر هام لعجوز يونانيّ مثلي. فهذا ما يحلم اليونانيون به: أن يعرف الجميع من أنت. تذكّرت شِجارًا صغيرًا حصل في حانة، عندما دعاني أخي، الذي لم يكن في مزاج جيد، لتناول وجبة معه، فتجادل مع النّادل. عندئذ سحب أخي بطاقته الأخيرة، وقال:

«هل تعرف مع من تتحدث؟»

أجاب النّادل: «نعم، أنت أستاذي القديم».

ثم غدت الأمسية لطيفة بعد ذلك.

وكان اليوم في النّادي الرّياضيّ لطيفًا أيضًا.

عندما عدت إلى المنزل في ذلك اليوم، جلست أمام الحاسوب، وكتبت جملة كانت تطنّ في رأسي كذبابة مزعجة. لقد نسيت الآن ما هي. لكنني شعرت أنّه من الضّروري أن أفعل شيئا حيالها. وأراحني ذلك كثيرًا، كما لو أن لوثة الغباء التي أصابتني قد أشفقت عليّ أخيرًا.

أردت أن أُخْرِجَ هذه الجملة إلى العلن بطريقة ما، فأنشأت حسابًا على تويتر، وتركته يطير في الفضاء.

بعد خمس دقائق، كنْتُ قد تلقَّيْتُ عشرة إخطارات. بحلول المساء، كان هناك مائة شخص «يتبعونني». تأتي الشّهِيَّة عندما تأكل، كما يُقال في اليونان. كانت تلك وسيلة فورية للتّواصل. لم يكن هناك حاجة إلى محرر أو ناشر، لم تكن هناك رقابة سوى رقابتي. أستطيع أن أقول ما أريد، وسيصل إلى الجمهور.

يجب أن أعترف أنه حتى ذلك الحين لم أكن أميل إلى هذه الموضات الجديدة، أو ما يسمى بوسائل التواصل الاجتماعية. غيَّرْت رأيي. بالطبع كان هناك الكثير من الرسائل غير المهمّة، لكن كان هناك أيضًا تلك التي تعني شيئًا، أو علمتني شيئًا.

لو كان المسيح حيًّا اليوم، لكان لديه حساب على وسائل التواصل الاجتماعي، هكذا خطر لي. «أحبّوا بعضكم كما أحببتكم.» هل هناك تغريدة أفضل من هذه؟

لقد وجدت علاجًا يُداوي حالتي. كتبْتُ على تويتر لأنّني لم أستطع الكتابة كسابق عهدي.

وهكذا مرّ الصّيف كالمعتاد تقريبًا، واستمرّت فوروسُند في التغيّر. فعندما ذهبنا إليها لأول مرة، كان يسكنها 1060 نسمة. كنت الأجنبيّ الوحيد. كان عدد السكان في انخفاض مطّرد مُذ ذاك. وفي صيف 2015، أضحى الرقم 856، لكنّني لم أعد الأجنبي الوحيد.

جاء أولًا الغجر الرومان. وذات صباح، رأينا شابة غجريّة تجلس خارج متجر إيكا للمواد الغذائية. هكذا فجأة. كان من المستحيل إبعاد الفقراء. ثم تمّ وضع تسعة صبيان كانوا قد وصلوا إلى الجزيرة بمفردهم ضمن المجتمع المحلّي. كثيرًا ما كنت أراهم في النّادي الرّياضي، حيث كانوا يعودون أطفالًا لبعض الوقت. كانوا يُمازحون بعضهم، يقارنون عضلاتهم، يضحكون. لكن عندما كانوا يتسكّعون على غير هدى في الشوارع، لم يكونوا أطفالًا. كانوا أجانب، وكانوا يلتصقون ببعضهم كما لو أنّهم يحمون بعضهم.

تذكّرت شعورًا كان يراودني في سنواتي الأولى في السويد.كنت أمشي ملتصقًا بحيطان المباني مُدنيًا رأسي للأسفل. وتساءلت: من يعرف ماذا سيكتب هؤلاء الأولاد في يوم من الأيام؟

ثم جاء المزيد من اللاجئين. تبيّن أن أهل فوروسُند

يمتلكون لطفًا وكرمًا كبيريْن. كان العالم يتغيّر. كل شيء كان يتغير، وبصرف النظر عن سوء الحظ الذي لازمني في الصيف. فقد مضغت الفئران خرابًا في أسلاك السيارة وصندوقها الخلفي، وتعطل جهاز الحاسوب، وأضاع نتاج خمس سنوات من المخطوطات والعناوين والصور والرسائل والوثائق، وما إلى ذلك. كان لديّ نسخ، بالطبع، لكن استغرق الأمر أسبوعيْن مؤلِمَيْن لاستعادة ملفاتي. الأسوأ، أنّني كدت أحرق منزلي. نسيت مقلاة على الموقد. لحسن الحظ، أنّني نسيت أيضًا أن أقفِل الباب ورائي، لذلك عندما رأى جاري الدخان، تمكّن أن يدخل ويخمد الحريق.

ماذا كان يحدث لي؟

أي إله أغضبتُ؟

بعد ظهيرة أحد الأيام في نهاية الصيف، عندما بدأت الطيور تطير جنوبًا، رأيت أحدها يسافر وحيدًا. لقد فقد سربَهُ، لكنه تابع رحلته عبر السماء الفارغة. كانت وِجْهَتُه مدموغةً في دماغه الصغير.

ماذا عنّي؟ هل كانت هناك وِجْهَةٌ مدموغة في داخلي؟

ودون أن أعي لذلك، كنت أفكر أكثر وأكثر عن اليونان. ربما كانت تلك هي المشكلة. بمرور كل يوم، كنْتُ أفقد جزءًا جديدًا من بلدي الأم. رأيت ذات الأمر مع آخرين في وضعي. يتقلّصون في بيئة غريبة، من دون سبب حقيقيّ. كانوا ناجحين بمعايير المجتمع، يمتلكون منزلًا في أوطانهم الأصليّة، يذهبون إليه متى يشاؤون. لكنّ ذلك لم يكن كافيًا،

وفي النهاية كانوا يعودون لأوطانهم للأبد.

«عُدْ، لا يزال لدينا الكثير من النزهات الجميلة كي نمشيها.»

هذا ما قالته صديقتي العزيزة ماريا. وربّما كان ذلك ما ينقُصني. تلك النزهات في أثينا، تلك التي لم أقم بها بعد.

حدَثَ أن كانت شقة والدتي فارغة في ذلك الوقت بالذات. فقد أجبرت الأزمة المالية المستأجرين أن يُخلوها. ومتى ستسنح فرصة كهذه مرة أخرى؟ وعدني أخي ستيليوس، الذي يعتنى بالمكان، أن يُجهزه لاستقبالي.

حدَّثْتُ غونيلا بالأمر، وأُعْجِبَتْ بالفكرة.

الجزء الثالث

هبطنا في أثينا بعد عشرة أيام، في منتصف شهر أيلول. كانت الساعة العاشرة ليلًا. لم تظهر حقيبتي. توقَّف حزام الأمتعة. كنْتُ على وشك الذهاب لأتحدث مع شخص مسؤول عندما بدأ الحزام يدور مرّة أخرى. أنا وغونيلا حبسنا أنفاسنا. بعد دقيقة أو نحوها، ظهرت حقيبتي وحيدة، وكأنّها تُعاكسني. للمرة الأولى في حياتي كرهْتُ حقيبة.

قالت غونيلا: «أنت محظوظ».

ماذا بوسعي أن أقول؟

من أفضل الأشياء في مطار أثينا هو توفر سيارات الأجرة على الدّوام. وجدنا واحدة بسرعة، وحمَّلْنا أمتعتنا في الصندوق. سألتني غونيلا ماذا فعلْتُ بحقيبتي. كنْتُ قد نسيتها على الرصيف. لحسن الحظ، كانت لا تزال هناك.

قلت للسائق: «ميدان جيزي».

لم أعطِ هذا العنوان لأحد منذ عدة سنوات، ليس منذ أن تُوفِّيَت والدتي في الواقع. هناك كانت تعيش، وهناك ماتت. وإلى هناك كنّا أنا وغونيلا ذاهبَيْن. في السّيارة تحدثنا عن والديّ، عن أبي وبيجاماته الذّهبيّة، وعن كعكات أمّي.

انقشع الضّباب بداخلي قليلًا.

وأَسْقطْتُ محفظتي في الشارع ولم أنتبه. التقطها السائق وأعادها لي.

قال: «أنتَ محظوظ أنّني كنْتُ أنا».

اشتعلت غونيلا، وقالت بغضب: «في يوم ما ستنساني أنا أيضًا! هل أنتَ واقع في الغرام؟»

من الرائع لو كنْتُ كذلك، لكنني لم أكُنْ. فأعلنْتُ لها وأنا كلّي فخر بحكمتي: «لا يقع المرء في الغرام في عمري.»

كان ستيليوس ينتظر في الشقة ليعطيَنا المفاتيح وتعليمات مختلفة عن الماء الساخن، وأشياء أخرى. كما اشترى بعض الطعام للإفطار في صباح اليوم التالي. ثم سارع إلى بيته لأنّه لم يكن يشعر بصحة جيدة.

تركنا وحدنا. نظرت من حولي؛ طاولة المطبخ، سرير أمي المزدوج. ماذا كنْتُ أتوقَّع من هاتيْن الغرفتيْن بعد كل هذه السنوات؟ لم أشعر بشيء.

أفرغْنا حقائبنا، ونزلنا إلى الساحة. كانت جميع المحال مفتوحة. مشيْنا في نزهة قصيرة نحرّك ساقيْنا، ثم جلسنا نتناول الطعام. كان كلانا يتوق للأشياء ذاتها: الهندباء المطبوخة، جبنة الفيتا، سمكة الرّنجة المقليّة. لكن لم يكن لديهم السمكة، ولا الرتسينا اليونانيّة.

«أستطيع أن أفهم عدم توفّر السمكة، إنّما الرتسينا؟ إن اليونان من دون رتسينا تمامًا مثل الحب من دون قبلات.»

لكنني فكرْتُ أنَّ القبلات من دون حب هي أسوأ بكثير، لكنّني قلْتُ شيئًا آخر. قلْتُ إنَّني لم أشعر بشيء، فتساءلَتْ غونيلا عمَّ كنت أتوقع أن أشعر به.

«لا أدري. شيء ما. توقعت أن يتفتّح شيء ما في داخلي. فكرة أو ذكرى، لكن لا شيء هناك.»

لم تكن قلقة بما قلْتُه.

«سيأتي عندما يأتي. أنا سعيدة على أية حال. غدًا سنشرب القهوة على الشرفة. عليكَ فقط التحلي بالصبر.»

بدأت حركة المرور تخفّ حول الساحة. وتجاوز الوقت منتصف الليل. أنزل المخبز شبكة الشَّيْ الحديدية. وأحضر النّادل فاتورتنا.

«سألتُهُ: كيف يسير العمل؟»

«أجاب: أيّ عمل؟»

كانت القطط الضالة أكثر عددًا من الزبائن. هزيلة، قلقة، عصبيّة، اقتربَتْ بحذر، تنتظر لقمة تأكلها. أعطت غونيلا إحداها لقمة، فلحقتها البقية.

تأخّر الوقت، لكن ليس للأثينيين. مكثوا حيثما كانوا، بما في ذلك العشّاق الصغار، يتعانقون على المقاعد في الساحة، يتحدّثون بلغات مختلفة. التقطت منها الروسية، والألبانية، واليونانية، والعربية، لكن كان هناك المزيد.

لم أستطع أن أمنع نفسي من تذكّر سنوات مراهقتي تحت الأشجار في هذه الساحة. بدا كل شيء بعيدًا جدًّا، كما لو أن تلك السنوات لم تكُنْ أبدًا. فكَّرْتُ بما قاله فيليب روث، الروائي الأميريكي: «لا يمكنك الكتابة عندما تختفي الذكريات.»

ذلك مفهوم لي، وتلك كانت مشكلتي.

تذكّرْتُ، لكن الذكريات لم تعد مهمّة. لم تكن تنبض بالحياة. كانت تتحوَّل إلى صُوَر. وأنا كنت أتحوَّل إلى صورة

لذاتي.

نظرت إلى زوجتي، ربما طلبًا للمساعدة. كانت تُنهي آخر قطرات النبيذ، ورأسها مائل إلى الخلف. كانت رقبتها تلمع من العرق، وومض شيء ما في رأسي. لقد أنجبت للتّو طفلنا الأول. كانت غارقة في العرق، لكنها بدت سعيدة للغاية وهي تحمل ذلك الصغير بين ذراعيها.

قالت: «سأفعل ذلك مرة أخرى».

لم أنسَ ذلك قط، ولن أنساه أبدًا. لقدعشنا معًا منذ خريف عام 1968، وكنت ممتنًا لتلك الليلة التي تعرّفت إليها في الساحة.

في عمري، من الحكمة أن تحافظ على امرأتك بجانبك.

سألتها: «ألن تدخنّي سيجارتك؟»

دأبت غونيلا على أن تدخّن سيجارة واحدة في اليوم منذ سنوات عديدة، دائمًا في المساء بعد العشاء. واحدة فقط. ودأب أبي أن يشرب كأس نبيذ أحمر واحدة فقط كل يوم، حسبما تعود بي ذاكرتي إلى الوراء. واحدة فقط. مطلقًا اثنتيْن. كم أنا معجب بأناس من هذا القبيل، لكنّني أيضًا أخافهم قليلًا. فأي عزيمة يمتلكها المرء كي يستطيع أن يفيَ بوعد قطعه لنفسه، لكنه يمكنه بسهولة أن يكسره دون أن يُواجهه أحد بكلمة عتاب؟

«سأدخنها على شرفة ماما.»

حتى لدى زوجتي، اكتسبت شرفة والدتي حياة خاصة بها. كم أمضينا فيها الساعات الطوال، وشربنا الكثير من القهوة، وقرأت لنا والدتي حظوظنا في الفناجين. فكرت في الأمر مليًّا

متأملًا أن يوقظ شيء ما الحياة في جَوْفي، لكن شيئًا لم يحدث. لقد تحوَّلْتُ إلى حجر في داخلي.

في الماضي، كنت أستشعر شعورًا خاصًّا بمجرد هبوطي في مطار أثينا. فتتوسَّع رئتاي، وأتنفس وطني جنبًا إلى جنب مع وقود الطائرات. لكن هذه المرة، لم يحدث شيء.

كنت مسكونًا بشعوري أنني في المكان الخطأ طوال الوقت؛ وبكل وضوح، كان هذا نتيجة عدم قدرتي أن أكتب. كنت كالسفينة التي فقدت خاصِّيَّة طفوِها على الماء.

حدث الشيء ذاته في السويد أيضًا. انسحبت دون أن أدرك ذلك. فجأة، وأنا في منتصف محادثة مع أناس أحبّهم وأقدِّرهم، كنْتُ أهرب. إنْ دخلت غرفة مزدحمة بمائة شخص ورأيت رجلًا نحيلًا يقف وحيدًا في زاوية، فذاك أنا.

ربما هذا هو ثمن العيش في بلد أجنبي. الأمر لا يتعلّق بأنك تعيش حياة مختلفة عن تلك التي تركتها خلفك، وإنّما في حقيقة أن الاغتراب يجعلك غريبًا.

من أو ماذا سيرفع هذه اللعنة من على كتفيّ، كي أتمكّن أن أكون مرة أخرى ما أريده: إنسان بين النّاس؟

قبل بضعة أشهر تلقيت بريدًا إلكترونيًا من قريتي، مولاي. كان من مديرة المدرسة الثانوية، أولمبيا لامبوسي. كنْتُ قد سمعت باسم العائلة هذا من قبل. كان أحد الحطّابين، ويُدعى لامبوسي قد شجَّر طريقًا جميلًا بأشجار اليوكالبتوس العطرية خارج القرية. كان سؤال أولمبيا محددًا تمامًا، وغير

متوقع إطلاقًا.

أرادت المديرة وزملاؤها تسمية المدرسة باسمي. هل عندي أي مانع؟ هي لم تتصوّر أن يكون عندي مانع، لكن أحد زملائها قال إنّه يجب سؤالي أولًا: «قد لا تعجبه الفكرة». كان ذلك ممكنًا من الناحية النظرية، لكنَّ الفكرة أعجبتني، كثيرًا. لم أتوقَّع مثل هذه البادرة. كانت قريتي قد كرّمتني من قبل بتسمية أحد شوارعها باسمي. لم أره، إلا في الصُّوَر.

فكّرْتُ فورًا بأبي، الذي كان مدرِّسًا في تلك القرية. لن يصله الخبر. لكنَّني كنت أعلم أنه سيكون سعيدًا وفخورًا. «نحن لا نستسلم أبدًا»، هكذا كان يقول. موته لم يمنعني من ممارسة السعادة والفخر. فليخسأ الموت!

كنت أرغب في رؤية شارعي. وأكثر من ذلك مدرستي! ذات مرّة، قالت لي صديقتي ماريا، التي لم تعد على قيد الحياة: «أنت يا صديقي، ستجري إلى إعدامك إذا وعدوك أن يخلدوا الواقعة بلافتة عليها اسمك في تلك البقعة.»

لم تكن مخطئة. ليس لدي أي مانع ضد التكريم الرسمي. على عكس ذلك تمامًا. ولهذا كنتُ أكتب. كي يُخلَّد اسمي في شارع في قريتي، لتُسمّى مدرسة باسمي، كي أبقى موجودًا. بالتأكيد هكذا شعر الكتّاب والفنّانون قبل أن تتنمَّر علينا، وعلى سائر أفراد المجتمع، قوى السّوق. الخلود لم يعد موضة!

كانت اليونان واليونانيون يكافحون مرّة أخرى لتجنب الهزيمة، كما مرّات عديدة في الماضي. الاحتلال الألماني خلال الحرب العالميّة الثانيّة، الحرب الأهليّة التي أعقبت ذلك، الهجرة الجماعية، كلّها كانت تجارب شكلّت أفراد جيلي.

جميعنا، تقريبًا، كنّا في حِداد على أحد مات، ظُلْم ملأنا مرارة، أحلام مهجورة تعفَّنت في أرواحنا. لكن لا شيء من هذا يُقارن بالفقر الرّوحي الذي نعاني منه مؤخرًا.

كانت اليونان تتعرض للذُّل بشكل يومي في الصحافة الأوروبيّة. عانَيْنا من قبل، لكن حينذاك كنّا نحظى بتعاطف إخواننا البشر؛ كان الحق بجانبنا. الوضع مختلف تمامًا الآن، إذ رأيت رسومًا ساخرة ذكرتني بملصقات د. غوبل التي وُزِّعت في جميع أنحاء اليونان حينذاك تُصوِّر اليونانيين قرودًا مسلَّحة.

دَمِيَ قلبي. مرة أخرى فكّرت في أبي.

«لم نربح حريتنا حتى نصبح عبيدًا لعاداتنا.» هذا ما كان يقوله عندما كان يحاول إقناعي وأخي بالإقلاع عن التدخين. لم ينجح. بدلًا من ذلك أغوينا أمّنا فصارت تدخّن سيجارة بين فينة وأخرى.

هذه المرة لم تكن اليونان تدفع ثمن عاداتها القديمة، لكنَّها كانت تبيع نفسها كي تتمسَّك بها.

استغرق وزير التعليم بعض الوقت كي يُقِرَّ تغيير اسم المدرسة. تفهَّمْتُ ذلك. من كان لديه الوقت للتعامل مع أمر كهذا عندما كانت البلاد كلها تترنّح في مهبّ الرّيح؟ لكنّ المعلمين في المدرسة سيُسعدون إذا قمتُ بزيارة لهم. فالطلاب يقرؤون كتبي، وهذا الصيف سيقومون بمسرحيّة اسخيليوس.

كتبت مديرة المدرسة: «عزيزي الغريب، إن لم يكن لديك أي سبب آخر، تعال لسماع لغة يونانيّة جميلة فحسب.»

بدت الكلمات وكأنّها تعويذة سحرتني. لم أستطع

مقاومة دعوة كهذه. وعدت أن أُلبّي.

استلقيت بجانب زوجتي على السرير الذي ماتت فيه أمّي. لم أشعر بشيء على الإطلاق. لقد غدوْتُ بلا روح، هكذا فكّرْتُ.

كالمعتاد، قرأت غونيلا قليلًا، قبل أن تطفىء الضوء. قبّلتني بلطف في الظلام وتمنّيْنا لبعض ليلة سعيدة.

كان كل شيء كالمعتاد، على الرغم من أنّه لم يكن كذلك.

في صباح اليوم التالي، استيقظت على ضجيج، وكأنَّ هناك مَنْ يُحاول تشغيل محرّك متعنّت. كانت هناك الحمائم أيضًا. لم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة. صنعت لنفسي فنجانًا من القهوة، ثم جلست في مكاني السّحري، شرفة والدتي، واستمعت إلى المدينة تستيقظ.

تذكّرت المرة الأولى التي قابلت فيها يانِس ريتسوس، أحد كبار شعراء اليونان. كنْتُ أعمل حينئذ مع بينت هولمكفيست وأوستن خوستراند على ترجمة إحدى قصائد ريتسوس الأخيرة إلى السويدية، كتبها جميعها في الوقت الذي قضاه في جزيرة ليروس، المنفى الذي فرضه عليه المجلس العسكري الذي استولى على السلطة في عام 1967. كان مريضًا بشكل خطير، إلّا أنّه كان يعمل دون توقف. لم يكن لديه الكثير من الورق، لذا كتب قصائد قصيرة جدًا، أحيانًا لا تتجاوز أسطر معدودة.

أحبَبْتُ تلك القصائد. بينجت وأوستن، اللذّان حصلا

على ترجمة أوليّة خام لها، أحبّاها أكثر وأكثر، ووعدا بإنتاج نسخة مصقولة. لهذا السبب ذهبت لرؤية ريتسوس في أقرب وقت. رحبَّ بي في شقته المكوَّنة من ثلاث غرف في إحدى المباني المتواضعة خلف محطة القطار. المحطّة التي بدأت منها رحلتي نحو مستقبلي في السويد، ذات يوم.

تُطلُّ الغرفة التي كان يعمل فيها ريتسوس على فناء مدرسة. وخلال فترة الاستراحة يمكنك سماع صراخ الأطفال الصاخب، وكذلك جميع الأصوات الأخرى أيضًا؛ القطارات وهي تتباطأ نحو المحطّة، أو تُجاهد تحضيرًا لانطلاقها، السّيارات، الباعة المتجوِّلين، لا سيِّما هتاف بائع البطيخ، الذي كان صياحه أشبه بشخصية ستنتور في إلياذة هوميروس: «سأذبحهم بالسكّين جميعًا، سأطعنهم جميعًا!» لم تكن نيّته سيئة كما يتبادر للأذن. المغزى، أنَّه كان مستعدًا لتقسيم البطيخ حتى يتمكن الزبون من رؤية أحمرها الناضج.

سألت ريتسوس إن كان لا ينزعج من الضّوضاء. لا، على العكس تمامًا، كان يحبّها. لا سيَّما في الصّباح عندما كان يجلس على الشرفة ليرى ويسمع مدينته تستيقظ.

كان ذلك هو وقت أشْعاره، في الصباح الباكر. بقية اليوم كان متروكًا للنَّثر. لم يقُلها هكذا، لكنّني تذكّرْتُ ذلك وأنا جالس على شرفة والدتي. ربما كان هذا ما يجب أن أفعله. أن أعيد الكرَّة من البداية. أن أعثر على صباحي الأول.

لقد تعلَّمت الكثير من لقاءاتي مع يانِس ريتسوس. ونسيت الكثير ممّا تعلّمته عبر السّنين، لكن ليس ما سآتي على ذكره. فبعد عذاب كبير، تجرأت أن أسأله: «عزيزي السيد،

هل أنت متأكد أنّنا نقولها بهذه الشاكلة باللّغة اليونانية؟» لم يعتبر سؤالي إهانة، إنَّما نظر إلي بتفكّر، ثم قال ببعض الأسى: «لكنّه ليس اليوناني هو من يقولها. إنّه أنا.»

أيُّ ثقة بالنفس لديه حتى يأتيني بإجابة كهذه!

لست متأكدًا إنْ امتلكْتُ قدرها في يوم ما، وحتى لو فعلت، فقد فقدتُها عندما بدأت الكتابة باللّغة السّويدية. كنْتُ باستمرار غير واثق من نفسي، قلقًا أن أخطىء؛ أخطاء على شاكلة أننا لا نقولها هكذا باللغة السويدية. كتبْتُ، لأكثر من أربعين سنة، وسيف داموقليس معلق فوق رأسي. وسأبقى أشعر هكذا حتى إن كتبْتُ لأربعين سنة أخرى.

وبقي هذا الشعور معزّزا بفعل أكثر الحجج شيوعًا، لا يُقال هذا بل ذاك باللّغة السّويدية. هكذا، من دون أي حجج منطقيّة، أو لغويّة، أو نحويّة؛ مجرد الإشارة إلى كيفية استخدام اللّغة. لا يُقال ذلك باللّغة السّويدية. ببساطة. لكنّك لا تستطيع أن تتعلَّم لغة كاملة عن ظهر قلب، فأعترض باستسلام متزايد. أنا لست قردًا. أريد أن أفهم لماذا يختلف استخدام حروف الجر باختلاف الأمكنة، فنقول في غوتلاند *på Gotland*، لكن لا نستطيع أن نستخدم ذات حرف الجر عندما نشير إلى انجلترا، فلا نقول *på England*، ولو استطعنا لكان الأمر جدّ لطيف. ومع ذلك، لم يأتِ أحد على الإطلاق بتفسير غير أن هذا هو الحال في السّويدية. كان يجب أن أحْذوَ حَذْوَ ريتسوس. إنّه أنا من يقول، وليست اللغة السّويدية. لكنّني لم أصل إلى ذاك القدر من الثقة.

السؤال كان، ماذا سيحدث لو حاولت الكتابة باللغة

اليونانية. ما الذي أذكره، ما الذي نسيتُه، ما الذي ربما ضاع إلى الأبد؟ بدت استعادة لغتي اليونانية أكثر صعوبة من الاستمرار في أن أعيش حياة مترددة مع لغتي السويدية.

كرّمني يانِس بهدية، حجر من الشاطئ كتب عليها قصيدة عندما كان منفيًّا في ليروس. لم يستطع إلّا أن يقول ما قاله في القصيدة. ثمَّنْتُ ذلك الحجر كعيْنَيَّ تمامًا، ومع ذلك ضاعت مني عندما رحلْتُ من الاستوديو. وكأن ذلك كان نذيرًا. اليونانية لم تعد لك.

نهضت غونيلا بعيْنيْن مشرقتَيْن وخدَّيْن وردِيَّيْن؛ هي تنام دائما بشكل جيد. كانت ترتدي الرداء الأزرق الذي يناسبها أكثر من الأحمر.

رتّبْنا فطورنا على الشرفة. كان جارنا الملاصق لنا يتحدث إلى جار آخر على شرفة مواجهة. شربنا القهوة بين أصواتهم.

بعد ساعتين كنا نستمتع بكوب آخر من القهوة في الساحة. كان الأطفال من جميع الأعمار يركضون حول السّاحة في الحيِّز المخصّص للّعب. ذات يوم، لعبْتُ أنا هناك أيضًا. فكّرْتُ في العصابة. دياماندتيس الأول، الذي كنّا نسميه دائمًا «درع المطر» لأنّ شعره كان يتدلى مباشرة من جبهته كصفيحة معدنية. دياماندتس الثّاني، الذي كان في السجن على الدوام، وكان يُعرف باسم «النمر». و كرَكَتسانيس، بالطبع، القائد الدائم لكل فريق وكل مباراة. وهناك من كنّا نسميه «كرة العجين»، وهو لم يحظَ حتى بدور حارس مرمى. ثم الصغير كوستاس،

الخبير في دحرجة الكرة والمراوغة بها. لكن كل ذلك انتهى. تذكّرْتُ المزيد من الأصدقاء، لكنني لم أعد أذكر أسماءهم أو ألقابهم. كنّا جميعًا لدينا ألقاب. يمكنني أن أجدها جميعها، إذ كتبتها في أحد كتبي السابقة، لكن ما فائدة ذلك؟

إنَّ النّسيان جزء من الحياة.

جلست غونيلا بجانبي، تكتب بطاقات تذكارية كي ترسلها إلى السويد.

تساءلت عمّا حدث لكل الصّبيان والفتيات الذين ما زالوا بطريقة ما في وجداني كالنباتات المعمرة. كم منهم ما زال على قيد الحياة؟ أيهم غادرنا؟

تغيّرت السّاحة أيضًا. استحالت المقاهي الشّعبية إلى مطاعم وحانات معاصرة أنيقة. المطعم البسيط بطعامه الجاهز اختفى. الحلاق بشاربه المحفوف الرفيع الجميل لم يعد هناك. كلّما زرت أثينا في الماضي، ذهبْتُ إليه لتشذيب شعري، فقط لمجرد الاستمتاع بمشاهدته يتلاعب بالمقص متأملًا كيف سيقص شعري. كانت أصابعه بذكاء أنامل عازف بيانو من الدرجة الأولى.

أردت أن يكون كل شيء كما كان عليه. تلك هي دراما المهاجر. الحقيقة التي غادرها وراءه قد ولّت، لكنّها هي ما يناديه.

«لا يمكنك العودة.»

نظرت إليّ زوجتي بقلق: «أنت تتحدّث إلى نفسك.»

أنكرْتُ.

«وتبكي. لماذا تبكي؟»

«أنا لا أبكي.»

لكنّني كنت أبكي، دون أن أدرك ذلك. سَقت الدموع عيناي مليًّا.

«لا يمكنك العودة.»

ربما يجب أن أكتب عن ذلك. كانت فكرة عابرة، لكنّها أراحتني للغاية.

بعد ذلك، تمشَّيْنا حول الأكاديمية العسكرية في غابة الصنوبر الحجري، غابة طفولتي. استحال صرحها مباني للمحاكم. كان أوّل ما أدهشني، الرائحة. تذكّرْتُ حدّة عطر صمغ الصنوبر، خفيفة هادئة، حاضرة لكن غير مُقْحَمة، كمداعبة عابرة. أمّا الآن، فرائحة الغابة نتنة كمرحاض في الهواء الطلق، رائحة مقززة جعلتنا نعود أدراجنا. صحف قديمة مرميّة في كل مكان تشير إلى مشردين أمضوا ليلهم عليها. فقراء يونانيون ولاجئون. علب طعام فارغة، إبر مستعملة، وأوقية ذكرية.

ظهرت الأزمة الاقتصادية للبلاد بكل عريِّها. الكلاب الضّالة مرعوبة تزمجر إن اقترب منها أحد، والقطط الخائفة تعبث بين أكوام القمامة. عبرت قلّة من النّاس غابة الصنوبر للوصول إلى مبنى المحاكم على الجانب الآخر بأسرع ما يمكن. هنا وهناك، رافقتني مجموعات من الناس تعرّفت إليهم. كنتُ قد رأيت من يشبههم في ساحة مدبوريارىلاتسن في ستوكهولم، يتكوّنون عادة من عدة رجال وامرأة، جميعهم متساوون في البؤس، يتشاركون سيجارة أو زجاجة خمر أو نوع من المخدرات. رأيتهم يذهبون إلى المرحاض العام ويقفلون الباب خلفهم؛ ,بعد فترة وجيزة، كنت أسمع صرخات تصيح استغاثة، وأحيانًا

أنينًا يتأوه من المتعة.

الفقر، بما في ذلك الفقر المدقع، لم يكن شيئًا جديدًا في حياتي. لقد رأيته من قبل، حين كنت طفلًا، على الجانب الآخر من هذه الغابة، حيث كانت الثّكنات التي سكنها اللاجئون اليونانيون من آسيا الصغرى أو البحر الأسود. كان معسكرهم فقيرًا، لكنه لم يكن قذرًا، لم يكن بائسًا، لم يكن مقرفًا.

الآن كان الفقر مقرفًا تمامًا، في غابة طفولتي الصنوبرية في أثينا كما في مدبوريار بلاتسن في ستوكهولم. كان هناك حرب تُشَن ضد هؤلاء الناس، وهذا ما لم أفهمه.

«نحن فقراء، لكن لدينا كرامتنا،» هكذا كانت أمي تقول. تلك الكرامة لم تعد موجودة. الفقير لم يعد إنسانًا بل «مشكلة»؛ وجوده إزعاج للنظافة والصحّة العامة.

اعتدت أن أقول ذات الشيء كوالدتي. أصررت أن نمضي قُدُمًا، أنا وغيري. كان يُرعبني أن أرى النّاس يدعون أنفسهم يسقطون؛ كانت لديهم مسؤولية على عاتقهم. هذا ما اعتقدته.

كنت مخطئا، وكان ذلك إدراكًا مؤلمًا للواقع. أدَنْتُ أولئك الذين غرقوا لأنهم لم يتعلّموا السباحة، بدلا من أولئك الذين وقفوا ينظرون دون أن يحركوا إصبعًا.

كنْتُ واحدًا منهم.

مكتبة
t.me/t_pdf

في وقت متأخر من بعد الظهر، خرجت لشراء الفستق من إيجينا. أفضل فستق على وجه الأرض. خاصة إن تناولته مع شراب اليانسون اليوناني أوزو.

توجَّهْت إلى المتجر المعتاد، لكن العجوز المرح الذي يملكه لم يكن هناك. حلَّت محله امرأة قصيرة نحيلة في عمر غير معروف. شعرها فاتح، وعيناها تشّع بالحياة. ما إن رأتني صاحت: «مرحبًا أيّها الشاب الوسيم!»

كانت تبالغ، لكنني لا أستطيع أن أتظاهر أنني لم أكن راضيًا بهذه التحيّة.

أردت شراء بعض الفستق، وهو أمر لا يستغرق أكثر من ثلاث دقائق. مكثْتُ هناك ساعة تقريبا. أخبرتني كل شيء عن حياتها؛ هاجرَتْ إلى أمريكا عندما كانت صغيرة، عمِلَتْ في خمس وعشرين وظيفة مختلفة. تؤمن باللّه، وبالأسرة، وبالراحة. ردَّدت مرارًا: «على المرء أن يُعلِّم نفسه كيف يرتاح.»

كان لديها أربع أخوات يصغرنها، زوَّجتهنَّ جميعًا وبقيَتْ عزباء. وعندما كان والدها يحتضر، كتب لها يقول: «عليكِ أن تتزوَّجي، وإلّا فإن الأرض لن تستقبل جسدي، ولن يتحلّل». مصير قاسٍ مخيف لرجل عجوز شريف.

غادَرَتْ أمريكا، وعادت إلى اليونان، والتقت الرجل الذي تزوَّجَتْه. كان أرمل يكبرها بكثير، لكنّه كان رجلًا طيِّبًا، واستقبلت الأرض والدها.

في منتصف هذه القصة، رن هاتفها الخلوي. كان زوجها العجوز، وكان يحتاج إلى الأكسجين.

قالت: «ابقى هنا، سأعود حالًا.» وأسرعت مبتعدة.

بعد خمس دقائق عادت، واستمررنا في محادثتنا. كانت تبلغ من العمر اثنتين وثمانين سنة، لكنّها تخطط أن تعيش حتى مائة وثماني عشرة.

سألتُها: «لماذا مائة وثماني عشرة؟»

«أولًا، يجب أن أنتظر حتى يموت كل من قاطع أن يشتري من متجري لأنني امرأة، انظر إلى هؤلاء الأوغاد!»

وأشارت إلى مجموعة من الرجال المسنّين يجلسون خارجًا في المقهى المقابل.

«إنهم يموتون غيظًا في كل مرة يمرون فيها أمام هذا المكان. ينتظرون أن يموت زوجي، حتى يستولوا على المتجر، لكنهم ينتظرون عبثًا. سأقف هنا حتى أصبح مائة وثمانية عشر. بعدها، سيكون من الإنصاف أن أحصل على راتب تقاعدي لعاميْن قبل أن أصل إلى المائة والعشرين. سأسافر حول العالم، ليس للمتعة، لكن لكي أعرف كيف هي رائحة العالم في الشرق والغرب، في الجنوب والشمال. ثم سأموت سعيدة.»

سألتني غونيلا عندما عدْتُ إلى المنزل: «أين كنْتَ كل هذا الوقت؟»

«كنْتُ أتعلَّم أن الناس لا يستسلمون أبدًا.»

في صباح اليوم التالي، استلمنا السيارة المستأجرة. لم يعطونا الفولفو 40 التي طلبناها ودفعنا ثمنها، وحصلنا على نيسان بدلا منها. لم أقل شيئًا، لقد مررت بذات الحوار مرارًا من قبل. تحتفظ الشركة بحقها في أن توفّر للعميل «فولفو أو مركبة مماثلة». هذا التماثل يشير إلى سعة المحرك. احتججْت من قبل، وأصررْتُ على أنّني أستأجر سيارة وليس محركًا،

لكن البنود القانونية هي ذاتها في جميع أنحاء العالم. سلّمنا الموظّف المبجّل البطيء، سيارة النيسان كما لو كانت سيارة جاكوار.

سرْنا إلى مركز المدينة دون أية مشاكل، كان من المستحيل القيادة بسرعة أكثر من خمسة كيلومترات في الساعة. لكن عندما وصلنا إلى الطريق الرئيسي، وانطلقْنا نحو وجهتنا، لاحظت غونيلا أن غيارات السرعة لا تتبدّل.

ضغطت بقدمي كمسعور على دواسة البنزين. لم يحدث شيء. زمّر لنا سائقو المركبات الأخرى غاضبين، بعضهم أعطانا الإصبع، أو أمطرنا بالشتائم. على سبيل المثال، نعتني أحدهم بـ «الأحمق العجوز الغبي». سائقو الدّراجات النّاريّة كانوا الأسوأ. اقتربوا مني ونصحوني: «تحرّك بحق الجحيم، يا جدّو.» كان استياء غونيلا يزداد أكثر فأكثر.

كنت أتسلّى بهذا النوع من المشاهد من قبل. دبَّ فيَّ النشاط، وأطلقت الشتائم ردًّا، وقمت بالحركة المتعارف عليها دوليًّا إشارة للاستمناء، وتحوَّلت إلى شخص مختلف كليّة أمام عينَيّ زوجتي الدهشة.

أصرَّت: «علينا أن نفعل شيئا». بصعوبة كبيرة، تدبّرت مكانًا كي أصفّ لبرهة قصيرة، واتصلت بشركة السيارات. ردّ الموظّف المبجّل، وأكدّ لي أنني لست أول زبون يواجه تلك المشكلة، وأوضح أنني بحاجة إلى تحريك عصا الغيار من موضع لآخر حتى يشتغل نظام القيادة الأوتوماتيكي. وأعطاني درسًا أنّ هذا ينطبق على جميع السيارات الحديثة. كان يمكنني أن أسمع أنه كان يجاهد في كتم ضحكاته.

انطلقْتُ كالطائرة، وسألت غونيلا إن كان علينا أن نعود أدراجنا ونخنق الموظّف المبجّل، فضحكت. وقرّرْنا أن نواصل رحلتنا دون أن نقتل أحدًا.

لماذا لا يهدأ اليونانيون؟ تساءلت، وكأنني لم أكن يونانيًّا.

استقرّت الأمور عندما أخذنا الطريق إلى إلفسينا، على الرغم أنني كنت دائم التوَّتر عندما كنت أقود مرورًا بتلك البلدة الصغيرة. هناك، تنتهي حدود أثينا، وبدأنا نقترب من منطقة دياري في بيلوبونيسوس. موطني داخل وطني. بعدها، تقع قريتي، قلب موطني. مهد كل أشواقي، وكل أحلامي.

غرقت زوجتي في مجلة إيل. لقد قضيت ما يقارب عامًا من تدريبي العسكري بالقرب من إلفسينا، وتذكّرت الأمسيات التي لا تنتهي. هناك وعلى التلال المجاورة، كان المساء يهبط بطيئًا أكثر من أي مكان آخر. وذات يوم ذكرت هذا لصديقي كوستاس الصغير، ولا أنسى جوابه أبدًا.

«آه، إلفسينا. هناك عاث بروكروستوس فسادًا في الأرض، يقطع الطريق ويقتل النّاس ويُمَثِّل بجثثهم حتى تتناسب وطول سريره الحديدي. هناك أيضًا بكَتْ ديميتر لأن ابنتها الجميلة سكنَتْ تحت الأرض. كيف يمكن للّيل أن يهبط على إلفسينا؟»

في جميع رحلاتنا السابقة، كنْتُ أقصُّ على غونيلا حكايات عن تجربتي في التدريب العسكري، حين كدت أفقد عقلي بسبب الرتابة والقمع. لكن في هذه الرحلة بدت تلك الأحداث بعيدة جدًّا. لم تعد تهمني. كما أن كوستاس الصغير كان قد غادر عالمنا، ذلك الصبيّ المجنون الذي علّمني أن أرسم طرزان، وأول شخص سمعته يتحدّث عن مفهوم «المادة

المضادّة».

كان بإمكاني أن أقول الكثير، لكنني لم أفعل. كنت أجنبيًّا في وطن زوجتي، وكانت هي كذلك في بلدي. ربما كانت هذه الغربة المتبادلة هي ما ألَّف بيننا. وشعرت أنّه من الطبيعيّ أن تكون جالسة بجانبي. لذا، مرة أخرى، لم أقل شيئًا.

إن كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها قريتي، فإنّني أريد أن تكون غونيلا معي. هي الوحيدة التي شاركتني اغترابي، إنّها شاهد العيان الوحيد.

استرقت نظرة إليها وهي تقرأ، مميلة أذنها اليسرى كالمعتاد. أردت أن أقول لها شيئًا، لكنّني لم أفعل. كانت تعرف مسبقًا ما أردت قوله.

بعد بضع ساعات وصلنا إلى إبيداورس. قليلة هي الأماكن التي أحبّها بهذا القدر. صعدنا إلى آخر صف في المدرَّج، على الرغم من أن زوجتي كانت تعاني من ألم في ركبتها، وكنت ألهث مجاهدًا كسمكة على اليابسة.

كانت المكافأة فورية. بدا المسرح القديم كزهرة كبيرة تنمو في التجويف بين التلال. وكانت جوقة من النساء في منتصف العمر يغنيّن باللغة الهولندية، وكوفئوا بتصفيق حماسي حار من السيّاح الآخرين. صفّقْتُ أنا أيضًا، كما لو كنت سائحًا كذلك. وإن كنْتُ بطريقة ما سائحًا في بلد كان ذات مرة وطني.

كانت مجموعة من الطلاب البولنديين تجلس بجوارنا. كانوا مهذّبين بشكل استثنائي تجاه بعضهم والآخرين، بما في ذلك كلب مسنّ متعب يلهث ممدَّدًا عند أقدامهم. بدأوا

يحادثونه ويداعبونه، فدبَّت فيه الحياة. استلقى على ظهره رافعًا ساقيه في الهواء، ثم تدحرج على بطنه متظاهرًا بالنّوم.

سألْتُ غونيلا: «ماذا يفعل؟»

فأجابت بنبرة محايدة: «يريد أن يستدرجهم كي يعتنوا به؟»

«وسينجح؟»

«انظر إلامَ يحصل.»

لقد نجح. لماذا لم أفكر في ذلك من قبل؟ لقد أسر الكلب المسنّ قلوب جميع الطلاب، وتحديدًا شاب أشقر يُدعى ليوبولد. حكَّ له ليوبولد خلف أذنيه والتقط صُوَرًا له، فنبح الكلب راضيًا سعيدًا حتى ظننْتُ أنه يعمل لدى هيئة السياحة اليونانية. ممثّلٌ بأربع أقدام في أجمل مسرح في العالم.

«لم نعد دولة بل وِجهة سياحيّة. حتى حيواناتنا في خدمة الزّوار. كيف انتهى بنا المطاف إلى هذه الحال؟ ما كان يجب أن أفكر هكذا. لكنّني فعلت.

أخفيت حزني عن زوجتي، التي كانت مشغولة تلتقط صورة لي.

سرْنا من إيبيداورس القديمة إلى إيبداورس الجديدة بمحاذاة البحر. في نزهتنا على الشاطىء، رأيت جميع المحلات التجارية تعرض لافتات باللغة الإنجليزية، بينما تُقدم المطاعم البيتزا والطعام الصيني. اشترت غونيلا المزيد من البطاقات البريدية. غدت الحرارة لا تُطاق. استقرت مجموعة من حوالي أربعين شخصًا في حانة مايك، وانخرطوا يناقشون بصخب ما سيأكلونه.

قال رجل نحيل يرتدي قبعة من القش: «أولاد، صبايا، إنها ليست مسألة حياة أو موت. إنها مجرد وجبة طعام.»

قيل له: «اخْرَسْ».

كانوا جماعة من المتقاعدين اليونانيين يشاركون في برنامج يُسمّى «السياحة الاجتماعية». كانت المسافة بين ما كنْتُ أبحث عنه وما أجده تزداد طوال الوقت. كانت اليونان تتغيّر دون طلب إذن منّي.

تجلّت الفروق الطبقيّة أكثر وضوحًا عمّا أذكر. غدا الأغنياء أكثر ثراءً، والفقراء أشدّ فقرًا. اصطفت سيارات فاخرة كبيرة خارج أحد المطاعم الفخمة، بينما وقفت دراجات مُتربة خارج الحانات المتواضعة، ورست اليخوت الخاصة الكبيرة في

الميناء. كما انتشرت فيلات فارهة حديثة البناء هنا وهناك. وكلما دخل المرء في اليابسة مبتعدًا عن الشاطىء، رأى منازل صغيرة وخيامًا مهلهلة.

شعرت كما لو أنّني لا أملك حق إبداء الرأي. كنْتُ أجنبيًّا. الشيء الوحيد الذي كان بوسعي أن أقوله هو أن البلد الذي أتذكّره قد اختفى.

أنا أيضا قد تغيرّت. لم أكن الشاب ذي الخمسة وعشرين ربيعًا الذي سافر إلى السويد. كنت رجلًا عجوزًا عاش في السويد لأكثر من نصف قرن. حتى لو استعدْتُ اليونان التي أتذكرها، فلم أكن متأكدًا أنها ستسُرني.

قضينا الليل في بلدة نافبليون المسالمة القديمة والجميلة جدًّا، وكانت مدينة رئيسة في القرن التاسع عشر. كان اسم الفندق غراند بريتاني، أي بريطانيا الكبرى، وكان لطيفًا للغاية. يتحدَّث موظفوه لغات أوروبية عدّة، لكنّ اليونانية كانت قليلًا ما تُسْمَع. خاطبني موظّف الاستقبال بالألمانية أولًا، ثم الفرنسية، وأخيرًا بالإنجليزية. كان هناك زمن اعتبرت فيه إطراء إن لم يتبيّن من يحدثني أنّني يوناني.

صعدنا إلى جناحنا الرائع بأثاثه العتيق، ومصابيحه المزخرفة المتوهجة بدفءٍ في أنحاء الغرفتين. كانت نهاية الموسم السياحي، لذلك استطعنا أن نتحمل نفقاته. اختارت غونيلا جانبها من السرير المزدوج الضخم. وكان يتسّع لزوج آخر بكل راحة.

قالت: «كم هو كبير، قد نحتاج أن نحدّث بعضنا عبر الهاتف.»

خارطة اليونان

بعدها، مشينا في البلدة القديمة. كان مساء دافئًا، وأناس كثير في المكان.

اكتشفت غونيلا دكانًا يقدّم الجيلاتيريا، البوظة الإيطالية، وهل هناك سويدي يستطيع مقاومة أن يمر بباب واحدة منها ولا يتوقّف؟ تحدّث الموظف معنا بالإيطالية رغم أنني خاطبته باليونانية. دُقَّ على عصبي.

أنا لست مولعًا بالبوظة. لكنّ غونيلا تحبها، واختارت بعناية من مجموعة من النكهات المختلفة بمساعدة شابتيْن تحدثتا الفرنسية معها.

تعكَّر مزاجي.

بعد قليل، جلسنا في مقهى، وتكرّر مشهد دكّان البوظة. تحدثْتُ اليونانية إلى النّادل، فأجابني بالإنجليزية. تنكّدت وقلت: «أَتحدث الروسية قليلاً أيضًا.» فأجاب بالروسية: «أنا كذلك.»

كانت هناك مفاجأة أخرى تنتظرنا في المطعم حيث قرّرنا تناول العشاء. لقد اخترناه من الخارج بناءً على معيار واحد بسيط: لا يوجد موسيقى في الداخل.

كنا ننظر فيما سنطلب عندما انضم النادل إلى حديثنا بلغة سويدية لا تشوبها شائبة. كان قد عمل في السويد لعدة سنوات لكنه غادرها لأنه «قد تكون في اليونان جميع مشاكل العالم، إلا أنّها تحتفظ بحلاوة الحياة.» سألته إن كان يسمح لي باستخدام كلماته في تغريدتي على تويتر، ولم يكن لديه مانع. عوملنا معاملة الملوك، وانعكس ذلك أيضًا في الفاتورة.

لم يكن مخطئًا. الحياة في اليونان لها حلاوة خاصة، وهو أمر يصعب تعريفه. ما هو يا ترى؟ هناك علاقة فوْرية تنشأ بين الناس قد تُسبّب الإزعاج أحيانًا، لكنّها مفيدة في الغالب. وهناك دائما مكان إضافي حول الطاولة. المطاعم لا تكون محجوزة بالكامل. وتظهر دائمًا زجاجة ماء وسلة خبز قبل أن ترمش لك عين. يتحرك الموظفون كالبرق، وخاصة الشابات الجميلات. ولكن كل ذلك يتطلّب أن تملك المال. إن لم تفعل، تغدو الحياة قاتمة مرّة. لقد عشت تلك الحياة، لذلك ركبت قطارًا إلى السويد. ولذلك أيضًا لم أعد.

قلْتُ لزوجتي: «لا تهمني حلاوة الحياة. إنّ الكرامة هي ما أريد. من دونها حتّى طعم العسل يغدو مريرًا.»

في بعض الأحيان، أعتقد أن كيل زوجتي قد طفح مني، فصاحت: «وماذا تتوقع منهم أن يفعلوا؟»

يجب أن أعترف أنه لم يكن لدي أي إجابة عقلانية أردّ بها. أمّا الطعام فكان أشهى ما يكون.

عدنا إلى الفندق، ودخنت غونيلا سيجارتها ونحن نشاهد القلعة الفينيسية في جزيرة بورتزي الصغيرة تغرق رويْدًا رويْدًا في الظلام. كنت أغرق في غربة مطبقة بذات الشاكلة تقريبًا. إذ لم يكن مسموحًا لي أن أتحدث لغتي في بلدي.

في صباح اليوم التالي استيقظت على معجزة تتفتّح أمامي. كانت الشمس قد بزغت للتّو، وانقشع ضباب البحر مرتفعًا ببطء شديد، واستعادت الجبال كتلتها. كان الأمر يشبه مشاهدة خلق العالم من مقاعد الدرجة الأولى.

لبست جناحيّ، حذاء رياضيّ خفيف من ماركة نايك، ومشيْتُ على طول الممر الحجري المتعرج حول التلة فوق المدينة. كنت وحيدًا تمامًا. فجأة سمعت أصواتًا من جانب البحر. رأيت صيادَيْن، من الواضح أنهما صديقان قديمان، إذ سأل أحدهما الآخر بهدوء: «هل سنذهب إلى جنازة كوستاس اليوم؟»

صديقي كوستاس أيضًا رحل، وكنْتُ على وشك أن أصيح: «هل يمكنني أن آتي معكما يا رفاق؟»

لكنّني اتكأت على الدرابزين الحجري متظاهرًا أنّني أرتاح. بينما كنت في الحقيقة أسترق النظر إلى الصيّادَيْن في

قاربهما الصغير، يتمايلان صعودًا ونزولًا مع تموجات الصباح اللطيفة تمامًا كبجعتيْن ترتديان القبعات.

لا أثمن من صديق.

هذا ما قاله أرسطو.

محطّتنا التالية كانت قلعة ميستراس القروَسطيّة، التي بناها فيلهم فيليهاردوين، أحد أمراء ذلك الزمان. كانت تعلو شامخة كمن يتحدى الموت واقفًا على شفا قمة يتعذر الوصول إليها. تطورت المنطقة وكبرت حتى غدت بلدة تُعرف بفلورنسا الشرق. هنا تم إعادة اكتشاف كتابات أفلاطون، والتي تُرجمت في نهاية المطاف إلى اللاتينية في فلورنسا نفسها.

أردت أن أُريَ غونيلا هذا الكنز النادر، لكنّ ركبتها كانت تؤلمها للغاية، وكان علينا أن نكتفي بما نستطيع أن نصل إليه بالسيارة. كانت المشاهد خلابّة تحبس الأنفاس. من هناك يمكنك أن ترى الوادي بأكمله، بساتين الليمون والبرتقال، وكروم العنب. كانت الريح حبلى بالعطور.

مشينا مسافة قصيرة وسرعان ما واجهنا كلبا، نبح بنعاس، وكأنّه مشهد عليه أن يؤديه. ثم جاء صاحبه، رجل نحيل يقارب الخمسين عامًا، سألنا على الفور من أين جئنا.

وعندما سمع أننا من السويد، التقط بعض التين الناضج من شجرة تين قديمة آثمة وأعطاها لغونيلا.

كانت هذه اللفتة مألوفة في اليونان، أيقظت في داخلي شعورا لأول مرة خلال رحلتنا. القاعدة الأولى: على المرء أن

يقدم شيئًا للغرباء: يد مليئة بالتين، كوب من الماء، عنقود عنب، أي شيء يروي عطشه.

أذهلني أنّ حلاوة الحياة اليونانية ربما تكون ذلك الشيء تحديدًا: يد تعطي. من شخص الى آخر. من غريب إلى غريب.

ومضت في ذهني ذكريات بعيدة. أصابع جدتي المعقودة وهي تزيل نوى الزيتون كي آكله بأمان، كفّ جدي الكبيرة مع حبة ملبّس من السكّر المعقود في منتصفها، أمّي تنقع قطعة مجفّفة من الخبز وترش السكر عليها.

كانت أوقات قاسية، جدّ صعبة، لكن كانت هناك دائمًا يد جاهزة لتُدخل شيئًا صالحًا للأكل في فم ذي الثلاث سنوات.

والآن، فإنّ العالم يمرّ بأوقات قاسية وصعبة مرة أخرى.

أي يد ستعطي، وأيّها ستأخذ؟

بالتأكيد للحياة حلاوتها في اليونان، لكن هناك الكثير مما لا حلاوة فيه على الإطلاق. فعلى سبيل المثال، النزعة المتأصلة لإخفاء خطأ ما بدل إصلاحه، كبير أو صغير. والإشارة المستمرة إلى الأصول اليونانية، هو بمثابة تفسير لكل شيء. لماذا لم تظهر الحافلة؟ أوه، هكذا نحن اليونانيون. لماذا السائق نكد؟ أوه، أنت تعرف كيف هم اليونانيون.

سيداتي وسادتي، المعذرة لكنني يوناني أيضًا، وأنا لست كما تصفون. وفي الحقيقة، أنا أبغض هذا النوع من التفكير. المرء لا يستطيع أن يُخفي حفرة في الأرض بسجادة، لكن يمكنه إصلاح الحفرة. وأنا لا أعرف كيف هم اليونانيون. فأنا لم

ألتقِ باليونانيين الذين تصفونهم. لكنّني قابلت مئات الأشخاص الرائعين، ولديهم علّة واحدة فقط، وهي أنهم يقولون: «أوه، أنت تعرف كيف هم اليونانيون.»

ثمَّ لدينا عملية الاستجواب المستمر. من أنت؟ من أي بلد أتيْت؟ ماذا تفعل هنا؟ كم هذا أمر مزعج للغاية، إن كان المرء لا يتفهمه.

إنَّ الغريب في اليونان لا يعتبر مصدر قلق، إنّما مكتب متنقّل للأخبار.

كان من الصعب الصعود إلى قلعة ميستراس، لكن، وللحقيقة، فإن النزول منها كان أشبه بالمعجزة. كانت الحافلات السياحية الضخمة لها أولوية المرور على الطريق الضيّق. توقّفْتُ كل عشر دقائق، على بعد عشرين سنتمترًا من حافة الوادي السحيق، وسمحت لهم بالمرور.

بعد فترة توقفنا لتناول فنجان من القهوة. سمعتْنا النّادلة نتحدث لغة أجنبية، وعلى الفور سألتنا من أين جئنا. السويد. السويد؟ كان لديها ابن عم قد هاجر إلى هناك، لكنّه للأسف، غادر منها إلى مكان لا عودة منه.

ماذا كان اسمه؟ وعندما أخبرتني، جفلْت. كان أحد أصدقائي الأوائل في السويد. مات بسرطان عدواني للغاية.

قالت النادلة: «كم هي غريبة صُدَف الحياة.»

بلا شك. كنت جالسًا هناك مع زوجتي السويدية، والمرأة التي تخدمنا كانت ابنة عم صديق لي مات في السويد. شعرت بالدوار. كانت إحدى تلك اللحظات التي يتوقّف فيها الزمن، أو يُضغَط ليُختزل في اللّحظة الحاضرة.

هذا ينطبق على الكتابة أيضًا. شعور بالتزامن مع أحداث الحياة، يصاحبه دوار يمكن التحكم به. افتقدت ذلك الشعور بشكل مفزع.

في الطريق إلى قريتي، مررنا بمكان آخر قضيت فيه جزءًا من خدمتي العسكرية. توقفت عند نقطة الحراسة.

قال الحارس: «يُمنع الوقوف والتّوقف هنا.» لكنّه هدأ عندما رأى شعري الأبيض.

قلْتُ له بنبرة وديّة: «في يوم ما، وقفْتُ حيث تقفُ أنتَ.»

كلماته جعلتني أتذكر شيئًا، كان هناك ممنوعات كثيرة في وقت مضى.

كان البصق في أي مكان ممنوعًا، كان السّباب ممنوعًا، كان أي تصرف يخل بـ «الآداب العامة» ممنوعًا. كانت البلاد في حالة استعداد دائم لمواجهة التهديد من الدول الشيوعية في الشمال، ومن تركيا.

كان وقتًا مريرًا.

اجتاحتني رغبة مفاجئة لتغيير مسار السيارة، والعودة إلى أثينا، ثم ركوب طائرة إلى ستوكهولم.

لكنّ غونيلا كانت قد درست الخريطة، فنظرت إلى الأعلى وقالت: «بقي أمامنا جزء يسير من الطريق ونصل إلى القرية».

وصلنا إلى مولاي قبل الساعة الثالثة بقليل. كان وقتًا محيِّرًا، إذ كان معظم الناس يتناولون الطعام، أو يستلقون للراحة بعد الغداء. ناسبني ذلك. لم أصل إلى قريتي، بل دخلتها. كانت غرفة مقفلة كان يجب أن أفتحها بمفتاح ازداد صدأً عبر السنين.

كان قلبي ينبض بقوة عندما أخذت المخرج المؤدي إلى القرية. تساءلت أين يمكن أن يقع الشارع المُسّمى باسمي، لكنني لم أتساءل كثيرًا. وصلنا إليه على الفور. وعندما وقع نظري على اللافتة التي تحملَ اسمي، أصدرْتُ صوتًا ما سمعته قط.

لم يكن صراخًا أو صياحًا، أو أي نوع من الأصوات البشرية. كان أشبه بصوت انكسار الجليد في أوائل الربيع. كان مرعبًا، قبيحًا. من حسن الحظ لم يدم طويلا. تسلّقت الحائط أعلى ما استطعت كي تتمكّن غونيلا أن تلتقط صورة لي مع اللافتة وشارعي. كبحت إحدى السيارات المارّة سرعتها بحدة لرؤية رجل عجوز مجنون عاليًا على الحائط. عدتُ إلى صوابي.

قلت لغونيلا: «من أجل هذه اللحظة، كتبْتُ طوال تلك السنوات.»

لمعت عيناها.

قالت: «لم أصدر ضجة كهذه حتى عندما كنت ألد.»

ربما كان تلك مبالغة، لكنها كانت تعرف ما أحبّ سماعه. عزيزي السيد فرويد ركَّزّ في إحدى نظرياته على شعور النساء بالحسد لعدم امتلاكهن العضو الذكري. لا أعرف أي شيء عن

ذلك، لكنّي أعلم أن حزني كان عظيمًا لعدم مقدرتي على حمل طفل في داخلي. وأحب أن أنظر إلى الكتابة كعملية ولادة طويلة الأمد، حتى لو لم يكن التشبيه مُوَفَّقًا.

التقطْتُ صُوَرًا لغونيلا كذلك تحت لافتة الشارع، وأنا أسدي لها نصيحة ألّا تنشرها على الفيسبوك كي لا يظنّ أصدقاؤها أنني متّ. فنحن في السويد نتحلّى بالعقلانية، ونفضل أسماء شوارع مثل: تيرابيفيغن، وتعني شارع العلاج، أو سنيكرباكن، وتعني تلّة النّجار. على المرء أن يكون قد شبعَ موْتًا كي يُسمى أي شيء باسمه.

واصلنا السير نحو الميدان. كان خاليًا من الناس إلى حدٍّ كبير. أخذنا نزهة قصيرة متردِّدة، كما لو كنّا هناك للمرّة الأولى. بالنسبة لي، كان هذا صحيحًا بطريقة ما.

دائما أصل إلى قريتي لأوّل مرّة.

بعد ساعة كنا في منتجع ألاس الرائع، حيث حجز مضيفونا غرفة لنا. تستغرق الرحلة من قرية مولاي إلى منتجع إيليا، حيث الفندق، أقل من خمس عشرة دقيقة عادة، لكننا لم نتمكن من العثور على الفندق. سألنا رجليْن كانا يعملان في المرفأ البسيط في إيليا، لكنهما لم يعرفا عنه. لم يكونا من السّكان المحليين، ولم يكونا من القرية المجاورة أيضًا؛ في الحقيقة، كانا لاجئيْن من ألبانيا. ومع ذلك، تحدثا بيونانية ممتازة، وقدّما المساعدة. هاتفا أحد المعارف وحصلا على المعلومات المفيدة، ونقلاها إلينا.

كان الفندق على الجانب الآخر من الميناء. كان مرئيًا من مسافة بعيدة، ولكن ليس من مكان قريب. كنّا قد مررنا بإشارة الفندق المتواضعة قرابة العشر مرات، لكنّنا لم نلحظها.

الآن تمكنّا أن نرى الفندق، لكن لم نتبيّن الطريق للوصول إليه. في نهاية المطاف، اكتشفت غونيلا مسارًا سريًّا.

قلْتُ: «لكن هذا يؤدي إلى البحر».

أجابت: «في هذه الحالة، علينا أن نسبح عبره.»

لم يكن الأمر بهذا السوء. فجأة رأينا مبنى جميلًا يقبع وراء نباتات البوجنفيليا الرائعة، لكن لم يكن هناك أحد في المكان.

قلْتُ وأنا أستعرض قدراتي في القفز إلى الاستنتاجات العجولة: «لا بدّ أن يكون هذا هو الفندق.»

مرة أخرى، توقفت على بعد عشرين سنتمترا من حافة واد، وقرعْتُ الجرس. سمعْتُ تردد الصَّوْت، لكن لم يأتِ أحد. وجدنا بابًا أصغر وقرعنا جرسه كذلك. وبعد فترة وجيزة، فُتح الباب، وظهرت سيدة عجوز ترتدي رداء وشبشبًا أحمر صغيرًا في قدميها. لقد أيقظناها في منتصف قيلولتها. لم يبد أنّها انزعجت، على العكس تمامًا. وشرحت لنا كيف نصل إلى الفندق بطريقة لن أنساها أبدًا. «استمر في المسير حتى ينتهي الطريق، ثم استمر مباشرة بخط مستقيم.»

وعلى الفور، نفّذنا. وبعد عشر دقائق، كنّا هناك. تحدثّت الشابة في قسم الاستقبال بلغة إنجليزية طلِقة، وكانت جيّدة في عملها. وعندما أجبتُها باليونانية، أثنت عليّ.

قلْتُ: «أنا يوناني».

فردّت: «لا يظهر عليك ذلك».

تساءلت بنفسي، وكيف يمكن أن يظهر ذلك. هل يجب أن أحمل وصمة قابيل على جبهتي؟

كانت غرفتنا، أو بالأحرى جناحنا، لطيفًا جدًّا. فتحت غونيلا جميع النوافذ واستنشقت بعمق، كما لو أرادت أن تستحوذ في داخلها على المشهد بأكمله، ثم علّقت التعليق ذاته الذي أسمعه منذ خمسة عقود:

«لا يوجد هواء هنا.»

أول ما تفعله غونيلا عندما تدخل إلى غرفة فندق هو فتح جميع النوافذ. إنها مثل أمي، تريد الهواء طوال الوقت. الشيء الثاني الذي تفعله هو التحقق إن كان هناك خطافات كافية لتعليق الأشياء في الحمّام. ونادرًا ما تكون راضية في هذا الصدد.

اتصلْتُ بمضيفتنا، مديرة المدرسة الثانوية، كي أعلمها بوصولنا. واتفقنا أن تأتي مع بعض زملائها للتعارف والسلام ومناقشة برنامج اليوم التالي.

كان من المقرر أن يصلوا في الساعة التاسعة مساءً. لكنها كانت أقرب إلى العاشرة عندما ظهروا، كشخصيات دانان في الإلياذة، يحملون الهدايا بأيديهم؛ التين والعنب والشوكولاته والكتب.

كانت غونيلا تحاول جاهدة تقشير حبة تين كبيرة وجميلة بالشوكة والسكين عندما أشارت لها المديرة، التي هي أيضًا مخرجة العرض المسرحي في اليوم التالي، أنّه من الأسهل استخدام يديها. أطاعتها غونيلا كتلميذة نجيبة.

كان رائعًا أنهم كانوا يحاولون ألا تشعر غونيلا بأنها غريبة بينهم. وطلبوا منها أن تختار اللغة التي تود أن تتحدث بها، الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الألمانية. وعندما حان وقت انصرافهم، تمكّنت أن تقول أفخاريستو بولي، وتعني شكرًا كثيرًا باليونانية.

تساءل الكثيرون على مرّ السنين لماذا لم تبذل غونيلا مزيدًا من الجهد كي تتعلَّم اللغة اليونانية، ولماذا لم أحاول إقناعها بذلك، ولماذا لم أتكلم اليونانية مع أطفالي. السبب الرئيس بسيط: حاجتي المستمرّة لتحسين لغتي السويدية. كنْتُ كاتبًا، وأحببت لغتي الجديدة، فقمتُ باستغلال زوجتي وأطفالي كي أصبح أكثر طلاقة. علاوة على ذلك، فإن غونيلا متمكنّة قويّة في لغتها، ومع العمر أصبحت كشُرطي لغة عندما يتعلق الأمر بالقواعد والنطق. «إنها ليست شافور»، (وتعني بذلك لفظ كلمة سائق بالسويدية)، تقول ذلك بنفور وهي تقطّب وجهها أمام التلفاز. هناك كلمات عديدة لم أكن لأتعلّمها لولا أولادي. أعترف بذنبي مع عظيم المتعة والفرح.

جلسنا على الشرفة لبعض الوقت، نستمع إلى البحر وننظر إلى الأضواء حول مدخل الخليج.

دخنَّت غونيلا سيجارتها.

سألتها: «هل أمضيتِ وقتًا ممتعًا؟»

«أطيب تين و عنب أتذوقه في حياتي.»

فكرّت للحظة: «قصدْتُ الناس.»

أجابت في النهاية: «لو كان كل اليونانيين مثلهم، لما كانت لليونان أية مشكلة».

في اليوم التالي، التقينا بصديقيْن هما دانا و جيانيس. كانا الوحيديْن الذيْن تذكرتهما من طفولتي؛ كانا يعرفان والديّ وأشقائي. أن أزورهما دون أن يقدّما لي الطعام كان أمرًا لا يمكن تصوره. تناولنا غداء رائعًا، وتحدثنا عن المسرحية المرتقبة.

كان جيانيس يملك المجموعة الكاملة لمجلدات مآسي اسخيليوس، مرتَّبة ترتيبًا أبجديًا بكلّ أناقة في مكتبه الرصين البارد.

للحظة وجيزة، حسدتهما على حياتهما. كان منزلهما أحد أقدم بيوت القرية، بغرف كبيرة، وسقف مرتفع، وأثاث عتيق يدويّ الصنع. كانت الشرفة تعبق بعطر الريحان. تذكَّرْت دانا في شبابها، كانت مضرب الجمال في القرية، تروي نباتاتها عصرًا بإبريق فضيّ، وهي تتأرجح نصف متر فوق الأرض.

أردت أيضًا زيارة العمّة أرجيرو، زوجة خالي. كانت آخر فرد من عائلتنا لا يزال يعيش في القرية. لذا اسْتَأْذَنّا من دانا، والتي لم تتركنا نغادر إلا ومعنا كعكة برقوق وزبيب بحجم خنزير صنعَتْها بيديْها.

رافَقَنا جياني ليرشدنا إلى الطريق. كانت العمّة كانت

العمة أرجيرو، زوجة خالي العزيز، لا تزال تعيش في منزل جدي وجدتي لأمّي. وكان زوجها، قد ورث ملكية المنزل، ووسّع في بنائه. واستمرت العمّة أرجيرو تسكن فيه بعد وفاته.

أصبح المنزل في النهاية مبنى مكوَّنًا من ثلاثة طوابق واسعة. اتضح أن العمة أرجيرو واصلت التحسين عليه، على الرغم من كبر سنّها وتردي بصرها. لكنها كانت مليئة بالحيوية كطفلة صغيرة، حاضرة الابتسام وسريعة الضحك. فتحت ذراعيْها على وسعهما عندما رأتنا، وعيناها السوداوتان تتألقان سعادة. سألَتْ غونيلا في لغة يونانية ساحرة: «كيف حالك، يا ابنتي الصغيرة؟» ردَّت غونيلا: «كالا، بولي كالا». وتعني جيد، جيد جدًّا. «أنتِ تتحدثّين اليونانية بشكل جيّد، يا ابنتي!» ردّت العمّة مبتهجة، وقد أظهرت سرورها بمظهر زوجتي، وتظاهرت أنّها تبصق جانبًا ثلاث مرات لإبعاد عين الشر. من ناحية أخرى، اسْتُقْبِلْتُ أنا بكثير من النقد. قالت العمّة: «أنت نحيل جدًّا يا عزيزي. يجب أن تأكل!»

كانت مستعدة لإعداد وجبة خفيفة، لكنّنا رفضنا بإصرار وارتضى الجميع أن نخرج إلى الشرفة لمشاهدة الشمس تغرب ببطء فوق الوادي. استطالت الظلال حتى اختفت الشمس خلف الجبال العالية في البعيد. ولم يبق سوى وميض الشفق الوردي المخلوط بالزرقة.

فكرت في معركة مولاي بين مقاتلي المقاومة والألمان، على الرغم من أنني لم أدرك أهميتها يومئذ. كنْتُ بالكاد أبلغ خمس سنوات من العمر في ديسمبر 1943. ورأيت الرجال يزحفون ببطء نحو القرية، ويتوقفون من حين لآخر لإطلاق

وابل من النيران.

هذا كل ما تذكَّرته. كل شيء آخر اختفى. تذكَّرْتُ جدي وجدتي لأمّي، لكن حتّى هذه الذكريات الشّحيحة كانت وكأنّها تنتمي لشخص آخر. لم أكن أنا من يقف على تلك الشرفة، لكن ما تبقّى منّي.

العمّة كانت كشجرة جميلة قديمة، تتقدم في السن وما تزال تنمو.

الهجرة، التي بدأت قبل سبعين عامًا عندما غادرْتُ قريتي للانتقال إلى أثينا، واستمرّت حتى وصلت السويد، لا تزال مستمرّة. هذه المرّة، كنْتُ أهاجر من نفسي. أصبحت تدريجيًّا شخصًا آخر.

لم أكن محسوبًا قبل مغادرتي اليونان. لم أكن أحدًا، لكنّني كنت أنا. فيلسوف العائلة، ابن أمي، لاعب الميْسَرة الخارجية لفريق كرة القدم المحلي، التلميذ الذي كتب أفضل المقالات. كل ذلك ذرته الريح، أو ضاع في قطار متجه إلى مكان آخر. من أو ماذا سيعيدني إلى نفسي؟

أجلْتُ النظر من حولي مرة تلو الأخرى، متأملًا أن يستفيق شيء ما بداخلي. شيء ممّا أستطيع أن أتذكره، لكنّني شعرت كما لو أنّني أشاهد فيلمًا قديمًا مشوَّشًا. فقدت ذاكرتي قوتها. لذلك لم تعد الكتابة ممكنة. كنْتُ خاويًا في الداخل، كحبة جوز قديمة، تبدو كاملة معافاة، لكنّ ما بداخلها قد ذبُل ولم يتبقَّ فيها أية قيمة غذائية.

لم نبقَ طويلًا عند العمة أرجيرو، ولم تسنح لها الفرصة أن تطعمنا، لكن لم يفُتها أن تذكِّرني مرة أخرى أنّني نحيل

جدًّا. ولتكون في الجانب الآمن، أخبرت زوجتي أيضًا أن تتأكد أن آكل أكثر قليلًا.

عدنا إلى الفندق في حوالي الساعة السادسة. شعرَتْ غونيلا بالرغبة في النزول إلى البحر والسباحة. مشينا على طول الشاطئ، وشاهدتها تدخل في الماء على مهل. بدأت تسبح دون أن تُغطس رأسها تحت الأمواج. لم أرها قط تخرج من الماء بشعر مبلل. ذهبْتُ لمرافقتها، لكني غطّسْت رأسي مرارا على أمل أن أستيقظ من خمولي.

لم أفلح.

مكتبة
t.me/t_pdf

كان يوم 26 سبتمبر، ليلة القمر العملاق، إن كنتم تذكرون ذلك، ومن المقرر أن تبدأ المسرحية في مدرّج القرية الصغير في الثامنة والنصف. كان المدرج يعج بالناس عندما وصلنا إلى هناك، والمزيد يصلون طوال الوقت. شعرت كما لو كنت أشهد قدّاسًا دينيًّا مكرسًا لي. استمر القمر في التعاظم عاليًا في السماء.

ألقى رئيس البلدية كلمة، كما فعل الممثل الثقافي للمنطقة، وأخيرًا تحدثت مضيفتنا، مخرجة المسرحية ومديرة المدرسة، أولمبيا لامبوسي.

رأيتهم، سمعتهم، كانوا أناسًا رائعين، لكن عمّ كانوا يتكلمون؟ عنّي؟ هل كنت أحلم وأنا مستيقظ؟

ثم أُطْفئت الأنوار، ما عدا تلك التي على المسرح وفي السماء.

ظهر المراهقون على إيقاع الطبل في عتمة الليل الفضيّة المرصعة بالنجوم. توهجت ملابسهم خافتًا. بدوا مهيبين ورائعين.

كانت تلك الجوقة. ومع أولى كلماتهم، ارتشعت تأثّرًا.

انظر... ها هم الفرس المؤمنون
حرّاس التيجان الملكية الذهبية البراقة
يقتحمون تراب اليونان...

هكذا افتتح أسخيليوس المسرحية متحدثًا إلينا مباشرة. لم نكن جمهورًا. كنا جزءًا من المسرحية.

أدرك الممثلون الشباب جيدًا ما يقولونه. لقد شاهدْتُ من قبل مشاهير يؤدون أدوارًا مأساوية كلاسيكية، دون أن يتمكنوا من الإحساس بما ينطقون، أو أن يتواصلوا مع الجمهور الذي يتوجهون إليه. لكن هذه الأصوات الشابة تمكنّت من ذلك. سلّمْتُ نفسي كليًّا لهم، وإلى كلمات أسخيليوس، وكاد قلبي يتفجّر فخرًا.

هل هناك أي مكان آخر في العالم يؤدي فيه طلاب المدارس أعمال أسخيليوس؟ هل يوجد مكان كهذا؟

غدا القمر ضخمًا جدًا وقريبًا جدًا، حتى بدا وكأنه يمسك السماء بأسنانه. ثم فجأة انقطع التيار الكهربائي.

من أطفأ القمر؟ خطر لي هذا السؤال السخيف.

كان هناك وقفة قصيرة، عاد بعدها التيّار الكهربائي، واستمرت المسرحية. هذا بالضبط ما كان يحدث في طفولتي. كان التيار الكهربائي يأتي وينقطع طوال الليل، فتتوقف الحياة ثم تعود بعد بعد بضع دقائق.

هكذا شعرْتُ في هذه المناسبة أيضًا، كما لو كانت الحياة تبدأ من جديد. هطلت كلمات أسخيليوس كمطر بارد على أرض ظمأى.

هذه اللغة كانت لغتي.

كنت أتعرق بشدة، مع حبات كبيرة من العرق تلمع على جبهتي، وغونيلا تهمس في أذني: «اخْلع سترتك. أنت لست بحاجة إليها. الطقس لطيف في اليونان.»

استحال الأداء المسرحي انتصارًا. صفَّق الجمهور طويلًا وعاليًا، إذ كان الحضور يضم الأهل وأقارب الطلاب. لا أقول هذا بقصد أن أقلِّل من قيمة حماسهم؛ لكن وبكل بساطة، كان الأداء جيدًّا جدًّا جدًّا.

كان يجب أن ألقي كلمة شكر قصيرة، لكنني كنت متأثرًّا للغاية، وكانت ساقاي ترتجفان. تعثَّرْتُ، وكِدْتُ على وشك أن أقوم بإطلالة أكثر إثارة مما كنت أتمنى، لكنّ أحد المعلمين أخذني من ذراعي، وفي النهاية وقفْتُ على المسرح أمام الجميع كمن غرقَتْ سفينته، يكافح أن يلتقط أنفاسه. كنت أعرف أنَّ غونيلا كانت تقف على قدميها كبقية الحضور؛ بحثْتُ عنها لكنني لم أجدها. أحاطني الممثلون بعيون متوهجة لا قعر لها، ولن أنساها أبدًا. كانوا يحملون نسخًا من كتبي كي أوقعها. تبادلت بضع كلمات مع كل واحد منهم.

ازداد المساء رونقًا مع حفل عشاء جماعي تحت السماء الواسعة، يتدفق فيه الشلال المعتاد من أطباق المقبّلات.

كانت غونيلا تجلس على مسافة ليست بعيدة عنّي، وكِدْتُ أُلقي نظرة تجاهها من وقت لآخر لأرى إن كانت مستمتعة بوقتها. لكنّ الحقيقة أنّها كانت أكثر من ذلك. كانت فرِحَة من كلّ قلبها. وكانت المعلمة الإنجليزية الشابة الشقراء، التي زارتنا في الفندق من قبل، على أهبة الاستعداد لأية

مساعدة. بدأت أهدأ.

سهرنا حتى وقت طويل بعد منتصف الليل. أعادنا إلى الفندق زوجان لطيفان، كانا طبيبيْن. كان الزوج يعاني من نفس مشكلتي، ومن نفس النتيجة. كان يحاول الإقلاع عن التدخين. دون نجاح.

في صباح اليوم التالي، استيقظت باكرًا وفوجئت بعاصفة. كانت الرياح شديدة، ومنسوب البحر مرتفعًا، والسحب الداكنة في السماء. ثم هطلت أمطار غزيرة، وكأنّها تسقط بشغف.

لن يؤثر الطقس على خططي. ذهبْتُ إلى مطعم الفندق حيث يستطيع الضيوف أن يصنعوا لأنفسهم فنجان قهوة سريعة التحضير. جلست إلى طاولة. لا بدّ أن سرعة نبضي كانت بحدود المائة وثمانين، وكان قلبي يدق كشاكوش.

فتحْتُ الحاسوب، وغيّرت اللغة من السويدية إلى اليونانية، وانتظرت الكلمة الأولى. كانت الأمواج ترتفع أعلى وأعلى، والمطر يقعقع على زجاج النافذة. انتظرت. لا شيء. حاولت التفكير في اليونانية، لكن دون جدوى. كانت اللغة السويدية هي اللغة التي كتبت بها جميع كتبي.

أعدت مفاتيح الحاسوب إلى اللغة السويدية، ولكن لم يكن هناك أي شيء يجول في رأسي. لقد جمعت الكثير من المشاعر والانطباعات خلال هذه الرحلة، ودوَّنت الكثير من الملاحظات، لكنّها كانت كلها بلا حياة، ميتة كحجر.

جلست هناك لمدة ساعة تقريبا دون أن أكتب كلمة واحدة. كنت عالقًا بين لغتيَّ الاثنتيْن، تمامًا كحمار بوريدون

الشهير، الذي مات من الجوع والعطش لأنّه لم يستطع أن يقرر ماذا يختار أن يأكل أو يشرب.

لم أقل أي شيء لغونيلا. لم تكن على علم بخططي للكتابة باللغة اليونانية. لم أشأ أن أخبر أحدًا. خشيت الاعتراضات الواضحة. إذ كيف يمكنني أن أكتب بلغة لم أستخدمها في سياق أدبي مذ كنْتُ في العشرين؟

كنْتُ قد سمعت كل هذه الاعتراضات عندما بدأت أكتب باللغة السويدية. كيف يمكنني أن أكتب بلغة ليست لي؟ لكنّني فعلت.

عدت إلى اليونانية وانتظرت. نزلت غونيلا بعد فترة وجيزة، وتناولنا الإفطار معًا. خفضّ الطقس من معنوياتها قليلا، لكنها نظرت للأمور بطريقة عمليّة.

قالت: «لا بد أن الأرض تحتاجه.» ثم تساءلت عمّا كنت أفعله على الحاسوب في تلك الساعة المبكرة.

«كنْتُ ألعب الشطرنج.»

كانت تعلم أنّني أكذب، لكنّها لم تقل شيئًا، وأخرجت كومة من البطاقات البريدية التي اشترتها وبدأت تكتب، كما لو أن الكتابة هي أسهل شيء في العالم.

بحق السماء، سأفعل الشيء ذاته! هكذا فكّرْت. فتحْتُ الحاسوب مرة أخرى، وفكّرْت بصديق عزيز في السويد، واستعددتُ للعمل.

كان وقتًا صعبًا.

بعد الكلمات الأولى، شعرت بحلاوة غير مفهومة في فمي، وكأنّني قد تناولت العسل للتو. حلاوة وارتياح.

لم أكن أكتب، بل كنْتُ أتحدّث. أَمسكَتْ كل كلمة بالتي تليها كالإخوة الصغار. لم أكن أخشى أن أخطىء، مع أنّني كنت أعرف أنني سأفعل. هذه كانت لغتي. لم تفرض نفسها عليّ، ولم أكن مضطرًا أن أغيّر نبرة صوتي.

في السويدية، التي أحببتها وسأحبها دائمًا، لم أصل إلى هذه العفوية الفوْرية في الكتابة، وهذا الشعور بالارتياح. وربما لن أفعل ذلك أبدًا. كانت اللغة تاجًا ذا أشواك على رأسي، ولم تكن خفقة قلب. النتيجة لم تكن أفضل ولا أسوأ، كانت ببساطة مختلفة. هل من الممكن أن يزاوج المرء لغتين معًا؟

أعدت كتابة الجملة الأولى باللغة السويدية، محاولًا أن أكون مخلصًا بالكامل للغة اليونانية الأصلية.

لم أتمكن من ذلك. حتى تنساب بطبيعية في السويدية، كان لا بد من التغيير فيها. ليس كليًّا، وليس كثيرًا. لكنّ عالم كل لغة منها كان مختلفًا عن الآخر. وكذلك الإيقاع، وصيغة الوقت والتوقيت. لكن بشكل رئيس: الإيقاع. كانت السويدية تتدفق بإيقاع معيّن، واليونانية على وقع آخر.

الاستنتاج بسيط. كل لغة فريدة. لا يمكنك كتابة نفس الكتاب بلغتيْن مختلفتيْن. لكنك تكتب كتابًا يشبه الكتاب الذي كتبته باللغة الأخرى.

هذا كل ما في الأمر.

يمكننا أن نقول ما يجب أن يُقال في كل لغات العالم.

ويمكننا أن نخفيَه أيضًا.

أو أن نتحدث عن شيء آخر.

وهذه الأخيرة نقوم بها أفضل ما يكون بلغتنا الأم.

في اليوم التالي عدنا إلى بلدنا السويد. لكن هذه المرة لم أكن مهاجرًا. فكَّرْت في الطائر المهاجر الذي حلَّق وحيدًا في سماء غوتلاند وقد أضاع سربه، لكن ليس وِجهة سفره. كان العكس صحيحًا بالنسبة لي. لم أُضِعْ سربي، لكنّني أضعْتُ وِجْهتي.

لقد استعدْتُ وِجهتي مع كلمات أسخيليوس، مع هؤلاء الفتيان والفتيات ومعلمتهم، أولمبيا لامبوسي. هذا الكتاب القصير، هو أول كتاب أكتبه باللغة اليونانية منذ أكثر من خمسين سنة، (وكتبته بعدها باللغة السويدية)، وهو بمثابة شكري المتأخر لهم لإرجاعي إلى لغتي، وطني الوحيد الذي أملك، والذي لن يخذلني أبدًا.

لقد أظهروا لي تقديرًا فوق احتمالي؛ تقديرًا كان طوق نجاتي.

لقد أنقذوا فيَّ ما يُمكن إنقاذه.

فهل يهم في أي مكان في العالم أقضي حياتي؟

ثيودور كاليفاتيدس

هودنغيه، 28 فبراير 2016

مكتبة
t.me/t_pdf

عن الكاتب

وُلِدَ ثيودور كاليفاتيديس في اليونان عام 1938، وهاجر إلى السويد عام 1964. درَّسَ مادة الفلسفة العملية في جامعة ستوكهولم بين عامي 1969 و1972. عمل رئيسًا لتحرير مجلة بونير الأدبية (بونييرش ليتريرا) حتى عام 1976. تفرغ بعدها للتأليف والكتابة. كما ترجم العديد من المؤلفات الأدبية من السويدية الى اليونانية، وبالعكس. كتب ما يقارب ثلاثين عملًا أدبيًّا، تُرجمت معظمها إلى لغات عدة. حاز على الجوائز الأدبية المرموقة، والتكريمات الرفيعة من أعلى مستويات الدولة في كل من السويد واليونان. كما حصل على الجائزة الإسبانية للآداب لعام 2019 Premio Cálamo Extraordinario عن الطبعة الإسبانية من كتاب «حياة أخرى».

عن المترجمة

فلورا مجدلاوي، من مواليد عمّان، الأردن عام 1965. كاتبة ومترجمة في أدب الأطفال والناشئة. من أبرز أعمالها سلسلة هند وسيف للناشئة، وترجمة قصة فيليبوك للأديب العالمي تولستوي. تعمل حاليا كرئيسة تحرير لدار «فينيكس»، القسم العربي التابع لمجموعة بونيير للنشر، ستوكهولم. تعيش حاليًا مع عائلتها في السويد.